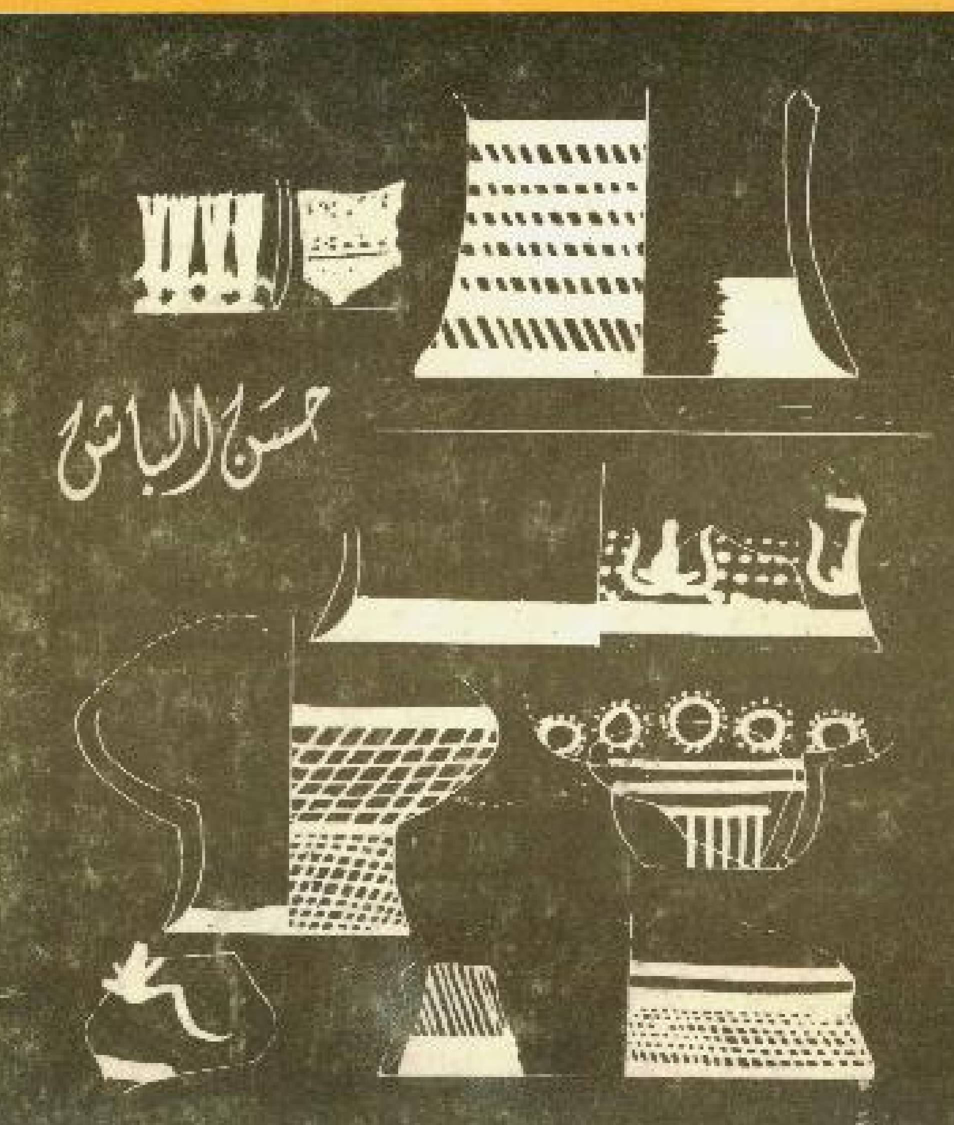
الميثولوجيا الكنعانية
والاغتصاب التوراتي



الميثولوجيا الكنعانية
والاغتصاب التوراتي

حسن الباش

الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي

الأساطير في فلسطين والساحل الشامي منشؤها . زمانها . مكانها . نصوصها . تأثرها . تأثيرها . رموزها . دلالتها

دار الجليل

○ الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي
○ تأليف : حسن الباش
○ الطبعة الأولى - دمشق ١٩٨٨
○ الناشر : دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص.ب ٤٦٤٨ - هاتف ٤١٥٠٨٩

○ ١٩٨٨/١٠٠٠

○ الهاجس

إلى الكنعانيين الأربعة :

رشاد أبو شاور الذي استلهم الأرض فكتب روايته
عز الدين المناصرة الذي أحب الزيتون فكتب شعره
محمد توفيق السهلي الذي أحب أجداده فكتب مثله
إلى زوجتي عائشة التي كانت لي عوناً دؤوباً في تأليف هذا الكتاب.

مقدمة

الأساطير جزء من التراث. هذا ما لا شك فيه. وإذا كان لنا أن نبحث في تراثنا الشعبي أو الرسمي فإنه من الخطأ التوقف عن سبر الماضي السحيق. ومن الخطأ أن نعتبر تراثنا العربي يبدأ منذ نهاية العصر الجاهلي مروراً بالبعثة المحمدية وانتقالاً إلى العصر الأموي فالعصر العباسي.

فمن الصواب أن نعود إلى أقدم ما يمكن الوصول إليه من التراث العربي المتأصل الجذور.

لقد اعتمد الباحثون عرباً وغير عربٍ على مصادر العهد القديم (التوراة) بل اعتبره بعضهم المصدر الأساسي للدراسات الميثولوجية كافة، ووقعوا في مصيدة الصهيونية، حيث راحوا يرددون صدى أفكارهم العنصرية والتفوقية. ولم يدركوا أن التوراة نفسها كما وصلتنا اليوم ليست سوى كتابات متأخرة كتبها كهنة اليهود وحاخاماتهم قبل المسيح بعدد من مئات السنين لا يتجاوز الخمس. وهذا ما يظهر مزاعم الصهاينة المدّعية أن تاريخهم يبدأ منذ خمسة آلاف عام.

لقد زخرت المنطقة العربية بالتراث الأسطوري. فكما وجدنا البابليين يحفلون بأساطيرهم وجدنا أيضاً الكنعانيين يهتمون بها

اهتمامهم بعقلهم وتراثهم وتفكيرهم وديانتهم.

وعندما برز العبرانيون ولا ندري كيف برزوا لم يجدوا أنفسهم سوى في متاهات البداوة الخشنة التي من أهم صفاتها الاغتصاب والقتل. وراحوا يعتدون على الشعوب الآمنة المستقرة. ولما حاولوا الاستقرار وجدوا أنهم فارغون. فصنعوا بخيالهم إلهاً يعبدونـه ويأمرهم بدوره بالقتل والدمار والتدمير والاعتداء على الشعوب.

إن التوراة ككتاب هو من صنع البشر ووضعهم وقد قال عنه فولتير «كيف السبيل إلى الاعتقاد بأن كل ما يقصه التوراة هو من وحي إلهي؟ فإذا كان الله هو الذي أملي التوراة حُق لنا أن نعجب. إذ أن الله ذو أفكار خاطئة جداً في علم الفلك كما أنه يجهل علم تاريخ الحوادث. ويجهل الجغرافيا جهلاً تاماً. ويعتقد أن الأرانب تجتر. ويناقض نفسه بنفسه فيما يخص الأخلاق.

فهل يظن المرء أن الرب ذاته يفرض مبدأ «العين بالعين والسن بالسن في التوراة ثم يأتي بالإنجيل فيطلب أن نمد خدنا الأيمن لمن يصفعنا على خدنا الأيسر وأن نعطي رداءنا لمن سرق ثوبنا وأن لا نقاوم الشرير فهل هذه قوانين تتفق وتعاليم التوراة؟»(١) ويتابع فولتير: و«كيف السبيل إلى الإيمان بالخرافات التي توجد في الكتاب المقدس، وبالمعجزات التي يقال إنها حدثت دون انقطاع خلال التاريخ اليهودي؟ وكيف السبيل إلى الإيمان بالمعجزات التي أسقطت أسوار أريحا عند نفخ الصور. وجعلت شمشون يكسر جيشاً كاملاً بفك حمار. وأضف إلى هذا كله كل الفظائع التي تسردها التوراة. وكل القصص القذرة والبعيدة عن التصديق التي نقرأها عن الأنبياء الذين حكم على أحدهم بأكل القاذورات وعلى آخر بالتهتك المقزز للنفس وغير ذلك من ضروب الأذى والإذلال

يوقعها إلههم بهم دون سبب معروف».(٢)

ويرى فولتير أن المسيحي يؤمن إيماناً كاملاً بالتوراة والإنجيل. ويسير على هديهما في أفكاره وأعماله، ولكن هل لهذا الإيمان مسوغ أو أساس شرعي؟ لا بالطبع.

«ويعلل نفيه بأن مختلف أقسام التوراة ليست لها نفس صيغة الصحة والأصالة. فكيف يمكن الاعتقاد بأن (موسى) كان لديه ما يكتب به في الصحراء حيث لا يوجد حتى أشجار ينقش عليها؟ زد على ذلك أن كاتب أسفار موسى يقول بأنه يكتب من وراء الأردن في حين أن موسى لم يدخل أرض الميعاد أبداً كما أن ثمة مدناً ومواقع أطلقت عليها، في النص، أسماء لم تعرف بها إلا بعد موت موسى بوقت طويل».(٣)

من هنا كان هدف الكتاب.

لقد زعم الصهاينة أن ذلك التراث هو تراثهم والحقيقة أن كل ما يتحدث في التوراة عن المسائل الأسطورية والقصص والحكايات هو مسروق، وليس التوراة سوى كتاب يجمع فيه تراث الشعوب الراقية إلى جانب ما أدخله الكهنة من تعاليم القتل والدعوة للاحتلال بأمر الرب (يهوه) كما يزعمون.

إننا إذ نبحث في أساطير الكنعانيين العرب لا نكون عاطفيين نتخلى عن الموضوعية والعقل لأن الصراع الذي يدور بيننا وبين العدو الصهيوني يحتاج إلى قوة العقل والمنطق والحجة والقوة بالقوة.

سنتعرض في هذا الكتاب للتعريف بفلسطين والساحل الشامي، نتعرف على مدن فلسطين وقراها بأسمائها الكنعانية، ونتعرف على زراعة الكنعانيين وتجارتهم وديانتهم ومعبوداتهم. نتعرف على

كيفية نسج أساطيرهم التي دمجوا فيها بين الواقع المعقول والأسطورة المتخيلة.

ولئن كان لليونان ملاحمهم فإن الأساطير الكنعانية لا تقل أهمية. فهي في جميع الأحوال كُتبت شعراً على ألواح أوغاريت. وتداخلت في الصراع قوى البشر مع قوى الآلهة. فكانت بحق ملاحم أسطورية يفخر بها الإنسان العربي الذي طالما اتُّهم بعجز الخيالي الملحمي.

وعلى أي حال فإن الكتاب يقدم التاريخ، ويقدم الجغرافيا، ويقدم الأدب الأسطوري الرائع، ويقدم تفنيد مزاعم الصهاينة في إدعائهم القائل بأحقية امتلاكهم للأرض العربية في فلسطين وبالتالي امتلاكهم للتراث العربي الأصيل والله الموفق لما فيه خير الأمة والدفاع عن حقوقها.

• حسن الباش
٢١ / ١١ / ١٩٨٦

○ المراجع :

١ - أندريه كريسون، فولتير: حياته، آثاره، فلسفته، ترجمة د. صباح محي الدين، ص ٥٠، الطبعة الثانية، بيروت: منشورات عويدات.
٢ - أندريه كريسون، فولتير: حياته، آثاره، فلسفته، ص ٥١، مرجع سبق ذكره.
٣ - أندريه كريسون، فولتير: حياته، آثاره، فلسفته، ص ٥٢، مرجع سبق ذكره.

الفصل الأول

• الكنعانيون وفلسطين عبر التاريخ:

لا شك أن علاقة الكنعانيين بفلسطين عبر التاريخ أثارت وما تزال تثير اهتمام الباحثين التاريخيين والتراثيين، وذلك بسبب كون الأرض العربية الفلسطينية تشكل أهم الأسباب لصراعات دامية بين قوى كثيرة، قد تكون داخلية على مستوى المنطقة، وقد تكون خارجية سببها الغزو والاستعمار.

فالأهمية تكمن في الأرض، موقعها الجغرافي، وحساسيتها التاريخية. وضرورتها الاستراتيجية ولهذا السبب فإنه لا بد من العودة إلى الوراء. لا بد من الرحلة الطويلة العائدة إلى القرون الخالية. لا بد من سير الأرض طويلاً حتى نصل إلى الجذور.

• ما هي الأرض الفلسطينية؟ ما هي فلسطين؟

فلسطين حسب رأي دراسي التاريخ هي جزء من الهلال الخصيب أي هي جزء من الوطن العربي الكبير.

يبدأ تاريخها حسب تقدير بعض العلماء منذ منتصف الألف الثالثة ق.م، في هذا الزمن هاجر الكنعانيون إلى فلسطين من جنوب الجزيرة العربية. وأقاموا مدنهم فيها وعمروها.

وبعض المؤرخين يرى أنه من خلال التنقيبات الأثرية في المدن التي تحمل أسماء كنعانية أصلية مثل (أريحا) و (بيت شان) و (مجدو) يجد أن تاريخ هذه المدن يعود إلى ما قبل (سبعة آلاف) عام وهذا ما جعلهم يعتبرونها من أقدم المدن في العالم والتي بقيت آثارها إلى الآن.(١)

ويقول الأستاذ (أولبرايت) في كتابه (الأركيولوجيا والديانة الاسرائيلية) إنه لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين أصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين في أوائل القرن الثلاثين، ق.م حيث عثر على أسماء مدن تحمل أسماء كنعانية ترجع إلى الأسرة الخامسة المصرية، عام (٢٩٦٥) ق.م. كما وردت كلمات كنعانية في المدونات المصرية من عصر الأهرام القرن (٢٨) ق.م.

وقد دلت الحفريات على أن فلسطين من أقدم المناطق التي عمر فيها الإنسان وأن الإنسان فيما قبل التاريخ قد أقام في بعض كهوفها. فإنسان الجليل الذي يرجع عهده إلى أكثر من خمسة وعشرين ألف عام أقام حياته الأولى في بعض كهوفها وعلى روابيها. وإنسان (أريحا) مدينة القمر الذي اتخذ من الكهوف القائمة في مدينة أريحا مأوى له ترك لنا المزيد عن هؤلاء السكان القدماء.(٢)

وليست فلسطين منفصلة عن العالم العربي. فهي من حيث المنطلق الجغرافي تشكل جزءاً من شمال بلاد العرب القدماء. وعندما ضاقت الحياة، وحل الجفاف في جنوب الجزيرة العربية، هاجر أهلها إلى مناطق المناخ الساحلي وغزارة الأمطار. وتعتبر هجرة العرب إلى الشمال نوعاً من النمو الحضاري والتقدم.

إن عالم الشرق الأدنى في الألف الثالثة ق.م يشكل عالماً واسعاً، ويؤلف فراغاً شاسعاً من الصحارى تحده الحضارة المستقرة على ضفاف النيل من الغرب والحضارة الموجودة في وادي الرافدين شرقاً ولهذا كان لا بد للعرب القدماء من اختراق الصحراء والذهاب غرباً وشمالاً إلى فلسطين وبقية بلاد الشام وبذلك تكاملت الدائرة حيث أنشئت الحضارات الثلاث واستقرت.

حضارة على الفرات، وحضارة على النيل، وحضارة على الساحل الشامي حيث الجبال الساحلية خصبة التربة. وذات الأمطار الغزيرة، والخضرة الدائمة والتجارة عبر البحار.

إن فلسطين الواقعة على الساحل الشامي الشرقي للمتوسط تقع في الغرب من قارة آسيا وتتوسط مفارق الطرق بين آسية وأفريقية وأوروبة. إنها تصل ما بين المتوسط والمحيط الأطلسي كما تصل البحر الأحمر بالبحر العربي فالمحيط الهندي. وبذلك تشكل جسراً يربط الرقعة العربية جغرافياً ما بين قسميها الشرقي والغربي.

يحدّ فلسطين من جهة الغرب البحر المتوسط وحدودها الشرقية تبدأ من تل القاضي (دان) على مقربة من بانياس، وتمتد جنوباً عبر بحيرة الحولة فنهر الأردن مخترقة بحيرة طبرية (بحر الجليل) ويكوّن مجرى النهر الحد الشرقي مع سوريا وشرق الأردن فالبحر الميت (بحر الملح) حيث يتجه الخط جنوباً قاسماً هذا البحر إلى قسمين. ويستمر هذا الخط عبر الوادي المصمى (عربة) إلى خليج العقبة المتصل بالبحر الأحمر. ويبدأ حدها الشمالي من رأس الناقورة على ساحل المتوسط. وتمثل حدود فلسطين الجنوبية خطاً يبدأ من خليج العقبة إلى رفح. حيث يفصل هذا الخط فلسطين عن سيناء. ومن المعروف أن مساحة فلسطين هي ٢٧٠٠٩ ك.م.^{2} وتمتاز بطول خطها الساحلي، وضيق عرضها مما يجعلها مستطيلة الشكل تقريباً.

نعد هذه الحدود وهذه الخطوط حدوداً وخطوطاً وهمية. ففلسطين لا تفصلها حدود استراتيجية عن سورية أو لبنان أو الأردن. وبلاد الشام تشكل كلاً جغرافياً واحداً. وظلت هكذا حتى تقسيمات الاستعماريْن الانجليزي والفرنسي. فمنذ أقدم العصور وحتى مطلع هذا القرن لم تكن حدود بين بلاد الشام ولا حتى في أقطار الوطن العربي كله.

● من هو كنعان؟ ما علاقته بفلسطين!؟

ترى الدراسات التاريخية والميثولوجية أن كنعان هو ابن حام بن نوح.

وهذا مستقى من المصدر التوراتي. وقد نزل كنعان أرض ميعاده في الساحل الشامي وانتشر أبناؤه الأحد عشر في الشام وفلسطين وأبناؤه هم: الصيدونيون. الحثيون. اليبوسيون. الأموريون. الجرجاشيون. الحويون العرقيون. السنيون (أهل السن). الارواديون. الصماريون. الحماتيون.(٣)

وترى مصادر أخرى أن كنعان هو أخ لحام وليس ابنه. ويقال إن بعلا ولد كنعان أبا الكنعانيين كما أن اباه أنجب حاماً الذي يسميه اليونان (اسبول) وكان أخاً للمصريين وأباً للاثيوبيين وقد ذكر كنعان في رسائل (تل العمارنة) التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م باسم -(كنخني Knakhni). وكانت هذه التسمية تطلق حينذاك على القسم الجنوبي من بلاد الشرق المشتملة على أرض فلسطين والتي كان قد استولى عليها (تحوتمس) الثالث فرعون مصر. أما القسم الشمالي فكان يسمى (أمورو) ويشمل منطقتي لبنان وشرقي الأردن.(٤)

وفي رأي بعضهم أن كنعان كلمة حورية. وتعني الصبغ القرمزي. وهو الصبغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون به. وقد استفادوا من الاصداف البحرية في صناعته على ساحل المتوسط ومن المفيد أن نقول إن لقبائل كنعان أسطورتها الام التي ترسم وتحدد لهم أرض ميعادهم في الشام وفلسطين بنفس ما حدث مع شقيقاتها من الأقوام السامية الأخرى. مثل أسطورة أرض ميعاد يعرب التي حددت الميثولوجيا القحطانية أرض اليمن أو أرض المرّ.

وقد كانت مناطق الكنعانيين منقسمة إلى دويلات صغيرة محصنة على غرار دويلات المدن في بعض مناطق العالم العربي القديم. ونتيجة للحروب المستمرة بينها فقد لجأت بعض القبائل الكنعانية إلى الجبال الساحلية وتحصنت بها. وأطلق على هؤلاء اسم الفينيقيين، والذين أطلقوا هذه التسمية هم اليونانيون.

وأهم مدنهم كانت -عكو- عكا الحالية- و (أكزيب) الزيب حالياً و (صور) و (صرفند) و (صيدا) و (بيروت) وقد تكون أهم مدنهم (بيبلوس) جبيل حاليا.

ومن خلال النصوص المكتشفة في أوغاريت، ومن خلال ما دوّن لدى الفراعنة عن علاقاتهم بالكنعانيين يتبيّن أن حياتهم في فلسطين والساحل الشامي كانت حياة تجارة وفكر وأخلاق بيد أن المدقق في طبيعة الحياة السياسية في فلسطين يرى أن الكنعانيين قد شرّعوا لأنفسهم نظاماً سياسياً غير توحيدي. فكل مدينة تشكل مملكة. وترتبط الممالك بمركز رئيس ضمن اتحاد كونفدرالي.

وتقول المصادر التاريخية إن كل سبع ممالك -مدن- ترتبط بتحالف من جهة، وترتبط بالحكومة المركزية عسكرياً وسياسياً. وقد كان لهذه الممالك -المدن- حياتها الاجتماعية والاقتصادية والروحية والدينية.

ويبدو أن تضارب العلاقات التجارية والاقتصادية وحالة التنافس التجاري زرع لدى الكنعانيين حس الفردية. وعدم التوحد في دولة واحدة قوية. لقد كانوا تجاراً وراكبي بحار. وتقول المصادر إنهم وصلوا معظم الشواطيء الشمالية والغربية لساحل المتوسط. وأثروا في الحياة اليونانية تأثيراً مهماً وكبيراً.

الحياة السياسية: لعل أهم فترة توضح لنا طبيعة الحياة السياسية هي فترة ما يسمى بالملك الكبير الذي ورد ذكره في نصوص أوغاريت. وهذا الملك كان على رأس دولة اتحادية تضم عدداً من المدن الممالك. وكانت بلاد كنعان تشمل سوريا وفلسطين بأكملها، وكان الكنعانيون يسمون فلسطين الشمالية (مريام) أو أموريا الشمالية. وقد ورد ذكرها في العهد القديم. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء إلى جرار إلى غزة وحين تجيء إلى سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع.(٥)

وكما ورد وقلنا إن بلاد كنعان وقعت تحت ظل حكم كونفدرالي واسع برأس كل بلدة أو مدينة ملك وهناك عاهل هام يحمل لقب الزعيم زعيم سبعة ملوك. ورغم كثرة الزعماء الصغار كان السيد الأعظم يحكم البلاد حكماً مركزيا، ويلقب أحياناً بالملك الكبير، وهو الذي يدير سياسة البلاد الخارجية وفق ما يوحي إليه آلهه. وقد يتمتع بالسلطة التشريعية، مما يجعله يستحق لقب القاضي ومن أجل ممارسة هذه الصلاحية، عليه أن يمتاز بالذكاء بنوع

خاص.[٦] ومع تعدد الطقوس الكنعانية لم يكن دور الملك الكبير يسيراً. وكان عليه الانصياع إلى متطلبات حلفائه في أكثر الأحيان وقد كانت الشؤون الإدارية تنتقل بالإرث إلى الملك. وكان الملوك يعترضون على ذلك. فإذا رضخوا فإن انتقال السلطة يتم إليه بعد عملية المسح. وإنه لمجرد أن الملك الكبير يعتبر ابناً لإيل وبالضرورة أخاً (لعناة) الآلهة، فإن ذلك غير كاف لتأكيد سلطته ما دامت عبادة إيل ذاتها مدار نقاش بين الكهنة وأفراد الشعب.[٧]

ومن مهام الملك الكبير مهمة الكاهن الأكبر، فعليه أن ينقل للشعب نبوآت الآلهة. وبفعل صلواته تتحقق الرفاهية لجميع أفراد الشعب. وكان أفراد الشعب يلومون الملك لقلة صلواته، ورغم ذلك كان الشعب يبدي إلى حد ما تعلقه بمليكه. وكانت الطبيعة نفسها قد صلت من أجل إعادة الملك إلى الصواب.[٨] وكان من مصلحة الشعب أن تتوازن حالة العاهل النفسية.

ومن أساليب حكم الملك الكبير التنبؤ بالمستقبل حيث يلجأ إلى استخدام الكأس الإلهية. كما كان بمقدوره أن يستشير أباه الإله (إيل) وذلك عن طريق الحلم بصورة مباشرة.

ويعتبر الملك الكبير رئيساً أعلى للجيش. وعليه أن يعتمد على طاقة جيوشه النسبية. وقد يُعتبر المختار من قبل الإله (إيل)، ولما كان هو الحاكم فإنه لا يخشى أية سلطة أقوى من سلطته سوى سلطة الإله، بعل، الذي يسمى سيد الأرض. لكن نفوذه يتضاءل نوعاً ما بخضوعه لسلطة المجتمع. وقد كان الشعب يبدي عدم رضاه، سواء بالصمت أو بالموقف السلبي حيال آلام الملك الكبير. كما أنه كان يستطيع أن يوجه إليه التوبيخ القاسي على عدم شجاعته أو على هروبه أمام العدو[٩] إن هو فر من المعركة.

ويبدو أن حروباً مستمرة أخذت في الاشتعال في زمن الملك الكبير.
وقد جاء في لوحات أوغاريت المكتشفة من قبل علماء الآثار أن جنوب البلاد الكنعانية قد تعرضت للغزو من قبل الرعاة العبرانيين القادمين من صحراء سيناء.

● المدن الكنعانية في فلسطين أهميتها ومواقعها:

القدس أورشليم: إن أول اسم أطلق على القدس هو يبوس نسبة إلى اليبوسيين الذين هم بطن من بطون الكنعانيين والذين نشأوا في الأساس في صميم الجزيرة العربية. ثم نزحوا عنها مع من نزح حوالي ٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق.م ولقد بناها ملكها (سالم اليبوسي) وأقام تحصيناتها. وكان أول من اختطها من ملوك اليبوسيين (ملكي صادق) الذي عرف عنه أنه كان محباً للسلام حتى أطلق عليه ملك السلام. ومن هنا أيضاً جاء اسم المدينة أورسالم. وعرفت المدينة باسمها الكنعاني أورشاليم أو مدينة السلام.[١٠] ويشير الأستاذ (أولمستد) الخبير في تاريخ فلسطين القديم إلى أن الكنعانيين وضعوا أول شريعة في شكيم (نابلس) التي اعتبرت عاصمة الكنعانيين في فلسطين لفترة طويلة من الزمن، وشيد فيها المركز الرئيس الديني المقدس. حيث كان هيكل إلههم بعل هناك.[١١]

وتعد نابلس الحالية اسماً محرفاً عن أصله اليوناني (نيابوليس) الذي يعني المدينة الجديدة. وذكر بعضهم أن اختيارها عاصمة للكنعانيين هو بسبب وقوعها في وسط فلسطين. وكان سكان شكيم يتألفون من الحويين وهم قبيلة من القبائل الكنعانية.[١٢]

أما (عسقلان) فهي أهم مدينة بناها الفلسطينيون القدماء. وقد تحصنت أمام غزوات الرعاة اليهود عشرات السنين. غير أنها وقعت بعد ثلاثمائة سنة من الصراع في يدي (داود) الذي هاجمها بأسلوب الخداع والحيلة واستولى عليها كما ذكرت التوراة. لكن الفلسطينيين أعادوها وحرروها مرة أخرى.[١٣]

وإلى جانب عسقلان أسس الفلسطينيون أربع مدن كبيرة وهي غزة، وجت، وأسدود، عقرون وقد كانت كلها على الساحل عدا مدينة (جت) فقد كانت داخلية قياساً بالمدن الساحلية الأخرى. إضافة لهذه المدن الكبيرة فقد انتشرت المدن الزراعية والقرى الصغيرة في كافة أنحاء فلسطين وعندما كان يداهمها الخطر فإن السكان يلجأون إلى المدن المسوّرة والحصون حيث

يصعب على الغزاة اقتحامها والفتك بسكانها.

١ ـ جازر : ويعني اسم هذه المدينة (نصيب) ويعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف عام. وقد عجز الغزاة العبرانيون عن احتلالها بسبب قوة الكنعانيين وصلابتهم.

٢ـ جت : وتعني «معصرة»، وتقع في الداخل وقد سكنها العناقيون وهم طويلو القامات وقد وُلد فيها (جوليات) الفلسطيني الجبار وغيره من جبابرة فلسطين. وكانت (جت) حصناً من حصونهم وموقعها الحالي هو تل يدعى (عراق المنشية) على بعد حوالي ١٠ ك.م غرب بيت جبرين وكان ملكها يدعى (أخيش) وهو ابن (معوك) الذي حكمها قبله وقد هرب إليه (داود) مرتين ففي المرة الأولى تظاهر (داود) بالجنون لخوفه على نفسه من القتل. وفي المرة الثانية لجأ (داود) إلى (أخيش). فرحب به بسبب العداوة بينه وبين (شاؤل) ولما اجتمع الفلسطينيون لمحاربة الغزاة اليهود أراد (أخيش) أن يأخذ معه (داود) للحرب ضد شاؤل. ولكـــن رؤساء الفلسطينيين عارضوا في ذهاب (داود) معهم لكونه ينتمي إلى اليهود ويخافون غدره. وهذا ما ورد في التوراة.

٣ـ غزة : أبعد مدينة فلسطينية، وواحدة من أقدم عشر مدن في العالم، سكنها الكنعانيون وهم الذين بنوها. وكان الاسكندر المكدوني أقسى من عاملها من الغزاة، فقد نكل بأهلها لانهم رفضوا الاستسلام إلا بعد حصار طويل وقد هدم أسوارها.

٤ ـ يافا : وهو اسم كنعاني معناه «جمال». وهي مدينة قديمة على شاطيء المتوسط، وعلى بعد ٣٥ ميلاً إلى الغرب الشمالي من القدس على رأس علوه ١١٦ قدماً. يشرف من قمته على منظر بهيج من شاطيء البحر. وتعد (يافا) من أقدم المدن في العالم. وقد احتلها (تحوتمس) الثالث فرعون مصر. وذكرت في لوحات (تل العمارنة) وكانت مركزاً إداريا محلياً من عـام ١٥٥٠ إلى ١٢٢٥ ق.م. لم تخضع المدينة للغزو اليهودي حتى جاء (داود) فاحتلها عندما احتل الساحل الفلسطيني.

٥ـ أريحا : وفي الكنعانية «(يريحو) وتعني مدينة القمر. وهي من أقدم



المدن في العالم باقية إلى الآن . ومن المعلوم أن أحد آلهة الكنعانيين يدعى (باريح) أو باريخ وهو إله القمر .

٦ـ **شوتم** : وهي مدينة كنعانية تقع مقابل جبل (جلبوع) وهي قرية (سولم) الحالية .

٧ـ **صفاة** : ومعنى صفاة (برج حارس) وهي مدينة كنعانية تقع جنوب فلسطين عند حدود (أدوم) .

٨ـ **عكا ـ أو عكو** : ومعناها رمل ساخن ، وهي إحدى أقدم مدن الكنعانيين وقد اتخذوها قاعدة لهم واستفادوا من خليجها .

٩ـ **عمورة** : ومعناها (غرق) وهي بلدة كنعانية تقع في غور الأردن .

١٠ـ **عناثوث** : وهي جمع عنات . وهي مدينة كنعانية على بعد ميلين ونصف من القدس واسمها الآن عناتا .

١١ـ **قرية أربع** : اسم كنعاني معناه مدينة أربع واسمها المشهور حبرون . وسميت كذلك لأنها تألفت من أربعة أحياء . وقد استخدمها الصهاينة بالاسم نفسه مع تغيير حرف القاف كافاً في كلمة قرية فأطلقوا عليها كريات أربع .

١٢ـ **قرية سنة** : ومعناها مدينة النخل وهي مدينة كنعانية قديمة .

١٣ـ **يعاريم** : ومعناها مدينة الغابات وهي مدينة كنعانية احتلها الجبعونيون .

١٤ـ **قطرون** : وهي مدينة كنعانية بقي فيها الكنعانيون رغم الغزو اليهودي وهي الآن قرية (تل الغار) وتقع جنوب حيفا بسبعة أميال .

١٥ـ **كزيب** : وتدعى اليوم ـ الزيب . وهي على بعد ثمانية أميال ونصف شمال مدينة عكا .

١٦ـ **لـــوز** : وهي مدينة كنعانية معناها لوز ثم دعيت بعد ذلك (بيت إيل) وهي قرب القدس .

١٧ـ **مادون** : وهي مدينة كنعانية ومعناها خصومة . كان يحكمها ملك ويرجح أنها قرية (مادين) .

١٨ـ **مجدو أو مجدون** : وهي مدينة كنعانية كان يحكمها الملك (سيسرا) عندما غزاها العبرانيون ومكانها اليوم هو (تل المتسلم) وأثبتت الكشوفات أن آثارها تعود إلى أربعة آلاف عام ق.م . وتدل نقوش المدينة على الثقافة العالية والتحضر الراقي اللذين تميز بهما الكنعانيون .

١٩ـ **بعشترة** : مدينة كنعانية ومعناها (بيت عشتاروت) وهي مدينة في منطقة (بيسان) .

٢٠ـ **بيت عناة** : مدينة كنعانية تعني بيت الإلهه (عناة) وهي اليوم قرية تبعد ثلاثة عشر ميلاً شرق عكا .

٢١ـ **بيت عنوت** : وهي مدينة كنعانية ومعناها بيت الإلهه عناة وهي اليوم قرية تبعد اثني عشر ميلاً شمال شرق الخليل واسمها اليوم بيت عانون وهي غير بيت عناة .

٢٢ـ **جبعون** : وكانت المدينة الرئيسة للحويين من أهل كنعان .

٢٣ـ **جرار** : وهي مدينة فلسطينية في الجنوب تقع على بعد ثمانية أميال جنوب شرق (غزة) . سكنها الفلسطينيون وأتى إليها (إبراهيم) النبي مع ابنه (إسحق) بسبب الجوع وكان ملكها (أبيمالك) وموقعها الآن على بعد ١٩ ميلاً إلى الجنوب الغربي من (بيت جبرين) .

٢٤ـ **حاصور** : وهي عاصمة مملكة الكنعانيين في شمال فلسطين . وكان يحكمها الملك (يابين) ثم حكمها بعده ملك كنعاني آخر بالاسم نفسه . وربما كانت هي (تل القدح) على بعد نحو أربعة أميال غرب جسر بنات يعقوب وقد اكتشفت بقايا المدينة من عصور الكنعانيين .

٢٥ـ **حبرون** : وقد سبق وتحدثنا عنها وهي الخليل كان يملكها (هدهان) وقد تحالف مع أربعة ملوك ومع أدوني صادق ضد الغزاة الذين كان يقودهم (يسوشع بن نون) .

٢٦ـ **دُور** : وهي مدينة كنعانية ومعناها ـمسكن. وهي على ساحل المتوسط تبعد مسافة ثمانية أميال شمال بلدة الطنطورة الساحلية .

٢٧ـ **أسدود** : ومعناها القوة أو الشدة أو الحصن وهي إحدى مدن

الفلسطينيين الخمس الرئيسة وكان الإله الرئيس فيها هو (داجون) إله الحبوب والمحاصيل. وظل (العناقيون) فيها حتى بعد غزو اليهود لفلسطين. وقد انتصر الفلسطينيون على الغزاة في إحدى المعارك وحملوا معهم ما يسمى (تابوت العهد) أو تابوت الرب اليهودي إلى أسدود ووضعوه في هيكل الإله داجون. وتقع المدينة في منتصف الطريق بين غزة ويافا.

○ **ملاحظة:** حكم أورشاليم فيمن حكم (أدوني صادق) ومعناه (سيد البحر) أو سيد العدل وقد حكمها قبل غزو اليهود لفلسطين. وعندما سمع أن اليهود احتلوا (عاي) و (أريحا) وأن الجبعونيين قد تحالفوا مع يشوع. عمل (أدوني صادق) حلفاً مع أربعة ملوك من (الأموريين) لمعاقبة (جبعون).

● **وتتنوع تضاريس أرض فلسطين:** فهي تقع على ساحل المتوسط وشاطئها طويل قياساً إلى مساحتها، وبعد الساحل مباشرة يقع سهل ضيق. ترتفع بعده جبال ساحلية دائمة الخضرة، وخصبة التربة، وفي الداخل تنتشر جبال كثيرة، لكنها في معظمها غير مرتفعة.

ويجري فيها عدد من الأنهر الصغيرة أهمها نهر الشريعة، ونهر اليرموك. وفيها أيضاً في الشمال بحيرة الحولة ثم بحيرة طبريا. وتمتد الأنهر حتى البحر الميت أو بحيرة الملح، أما الأنهر الساحلية فتصب في البَحر المتوسط كنهر (روبين) ونهر (المقطع) ونهر (العوجا) وتسقي هذه الأنهر مساحات لا بأس بها من مزروعات السهل الساحلي.

● **السكان:** يتجمع السكان الكنعانيون حول المناطق الخصبة، حيث كان المجتمع الفلسطيني القديم مجتمعاً زراعياً يعتمد على بعض الأنهر لكنه بصورة أساسية يعتمد على الأمطار الساحلية الغزيرة التي تروي السهل الساحلي والمرتفعات.

ومنذ العصر الحجري الحديث أو العصر (النيوليثي) (٧٠٠٠-٥٠٠٠) قبل الميلاد بدأت حضارة المنطقة تنمو وتتقدم في مجال التمدن، فكانوا أول من اكتشف النحاس اللين ثم اهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في إنتاج

البرونز. وبذلك كانوا السباقين في إدخال التعدين وفنه مما أعطى تلك الشعوب أدوات وأسلحة فتاكة. وقد أصبح استعمال البرونز شائعاً في المدن الكنعانية(١٤) مما جعل الفراعنة يشيرون إلى ذلك، لا سيما حين وصفوا الغنائم التي أخذوها من المدن الكنعانية في فتوحاتهم للشرق. وكانت العربات المطعمة بالذهب إحدى أهم الغنائم التي سجلها (تحوتمس) الثالث عام ١٤٥٠ ق.م. إضافة إلى سرير من العاج ومضاجع مطلية بالذهب وأنواع من الكؤوس والآنية والسيوف. والتماثيل الذهبية وخشب الأبانوس.(١٥)

ونتيجة طبيعية لخصب الأرض وتنوع التضاريس فقد انتشرت زراعة الكروم والتين. وأقيمت لذلك معاصر تنتج الخمور. وأخرى تنتج الزيت من الزيتون الذي يزرع في الجبال والمرتفعات ولا يخفى على المرء ما لأهمية الزيت والخمر في معابد الآلهة. حيث دَهْنُ الجِسم وتطهيره. وصب الخمر للآلهة.

وكان لزراعة القمح أهميتها البالغة، حتى أن الكنعانيين كانوا يخشون سقوط البرد. ويشبهونه بالحجارة. كما يخشون الصاعقة بقدر خشيتهم من الجفاف الذي بمقدوره أن يحوّل البلاد الخضراء إلى صحراء ذات تربة ملحية. وقد ذكر القمح في نصوص أوغاريت الكنعانية كأهم ثروة في البلاد.(١٦)

وقد استغل الكنعانيون هذه الزراعة وصنعوا الخمور والأدوية وصدروها. وقد تقدم عندهم فنّ صناعة الزجاج، والنسيج الصوفي والقطني. وكذلك صناعة الأصباغ. ولا سيما القرمز والأرجوان. وقد أمدتهم المراعي بالأغنام واللحوم والصوف. واعتمدت المراعي على الندى (الطل) لا سيما أن الجبال الساحلية غالبا تمنح الندى للأرض.

واشتهر الكنعانيون بابتكار وسائل الدفاع عن مدنهم وكرسوا طاقاتهم وجهودهم في سبيل اتقان الأساليب الحربية التي لازمتهم طيلة حياتهم، بسبب النزاعات والخصومات المستمرة بين دويلات البلاد الكنعانية من جهة وبين الكنعانيين والغزاة الغرباء من جهة أخرى.

وقد برعوا في إنشاء القلاع والتحصينات الدفاعية. وقاموا بحفر الآبار والأنفاق التي توصل المياه إلى داخل القلاع. وشاهد على ذلك النفق الطويل الذي حفروه في بلدة (جازر) الكنعانية الواقعة على بعد خمسة وثلاثين كيلو متراً إلى الشمال الغربي من القدس وذلك للوصول إلى ينبوع ماء يقع تحت سطح الأرض بحوالي مئة قدم. ويُنزل إليه باجتياز مدرج مكون من ٨٠ درجة ويبلغ طول النفق ٢١٩ قدماً، ويرجع بناء الحصن فوق هذا النفق إلى ٣٠٠٠ عام ق.م. وهناك نفق آخر في المدينة القديمة (يبوس) القدس. يشبه النفق السابق إلى حد كبير. وقد حفر وأنشيء لإيصال الماء إلى الحصن الذي شيّده اليبوسيون الكنعانيون. ولا زال النفق موجوداً. ويسقي جزءاً من مدينة القدس ويسمّى الآن (عين العذراء) وقد اقتبس الكنعانيون فن العمارة من البابليين لا سيما بناء الأقواس. أما التجارة فقد ازدهرت ومارسها الكنعانيون بجدارة. وقد لعب المصريون دوراً مهماً في الحفاظ على الأمن لتأمين المواصلات عبر المدن الكنعانية. وفي القرن السادس عشر ق.م. بلغت التجارة أوجها بين الكنعانيين وبقية بلاد الشام من جهة وبينهم وبين المصريين من جهة ثانية.

ولعل أعظم ما قام به الكنعانيون هو اختراع الأبجدية الذي يعتبر من أهم منجزات الحضارة في تاريخ البشرية. ويتفق الباحثون على أن أصل الحروف الهجائية في العالم بدأ في كتابات الأقوام السامية الغربية الذين تمتد مناطقهم من طور سيناء إلى أقصى حدود الشام شمالاً وغرباً. فقد وجدت في هذه المناطق أنواع كثيرة من النقوش السامية الكنعانية الغربية وقد كتبت بالحروف الأبجدية. وقد نقلها الآراميون شرقاً إلى الهند وآسية. وحملها الفينيقيون إلى أوروبة. وهكذا تفوقت الكتابة بالحروف الأبجدية على الكتابة بالمقاطع المسمارية التي كانت شائعة آنذاك.[١٦]

إن النصوص المكتشفة في أوغاريت هي نصوص بأقدم لغة. وأول لغة اعتمدت على أول (ألف باء) مختصرة وهي من ثمانية وعشرين حرفاً صوتياً تنشيء عند تركيبها أصواتاً أخرى. كما هي الحال بالنسبة للعربية التي لا يحسن لفظها إلا بالتشكيل أو على أساس معرفة مسبقة بلفظها.

والأساطير الكنعانية التي هي أساس هذا البحث كتبت بتلك اللغة. وقد عكف على دراستها وحلل رموزها عدد من العلماء منهم (ديل ميدكو) الذي ظل عاكفاً على دراستها أربع سنوات متتالية وقد قال بصدد ذلك عن الحضارة الكنعانية (مهما كان حكم التاريخ، فمن المؤكد أن الكنعانيين كانوا في مصاف الشعراء الكبار دون جدال. ولا نعرف بالضبط إلى أين تصل بنا الدراسات والتحقيقات حول منجزات هذا الشعب الأدبية. إلا أننا ومنذ الآن نحس بأن (هوميروس) يمكن أن ينشأ من رفات (إيلو ملكو) ومن خلال الإلهة العذراء (عناة) تبدو لنا من بعيد خوذة العذراء أثينا.[١٨]

ولما كانت اللغة أداة تعبير عن حضارة الشعوب فإن اللغة الكنعانية والآرامية المتحدرتين من السامية الشمالية تعبران عن حضارة معظم الشعوب التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية وتمركزت في المشرق العربي (الهلال الخصيب).

إن أقدم كتابة بأقدم حروف أبجدية معروفة حتى الآن هي الكتابة الكنعانية السينائية القديمة التي تنقسم إلى مجموعتين حسب رأي علماء اللغات. فمن الأولى تفرعت الفينيقية والعبرية والآرامية. وفروعها النبطية والعربية الحديثة أما الثانية فقد جاءت منها السبئية والأثيوبية.[١٩]

○ المراجع :

١ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص٨، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٤، العربي للإعلام والنشر.
٢ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص٩، مرجع سبق ذكره.
٣ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص٣٦، دار ابن خلدون.
٤ - إيلي ملكو، ترجمة: ديل ميدكو. اللاذقية. نصوص من الكنعانية، ص ٣١-٣٢، ترجمها إلى العربية: مفيد عرنوق، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٠م.
٥ - سفر التكوين ١٠-١٥-١٩.
٦ - اللاذقية. نصوص من الكنعانية، ص٤٨، مرجع سبق ذكره.
٧ - اللاذقية. نصوص من الكنعانية، ص٧٥، مرجع سبق ذكره.
٨ - اللاذقية. نصوص من الكنعانية، ص١٠٣، مرجع سبق ذكره.

٩ - اللاذقيه. نصوص من الكنعانية، ص ١٠٤، مرجع سبق ذكره.
١٠ - د. عز الدين فوده، قضية القدس، ص ٣١، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ١٨٠، سنة ١٩٦٧م.
١١ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢١٩، مرجع سبق ذكره.
١٢ - عبد الحكيم ذا النون، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٣٥، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٤م، دار الكتاب العربي - سوريا.
١٣ - عبد الحكيم ذا النون، تاريخ فلسطين القديم، ص ١٠، مرجع سبق ذكره.
١٤ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٠، مرجع سبق ذكره.
١٥ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١١، مرجع سبق ذكره.
١٦ - اللاذقيه. نصوص من الكنعانية، ص ٧٧، مرجع سبق ذكره.
١٧ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ٣٠، مرجع سبق ذكره.
١٨ - اللاذقيه. نصوص من الكنعانية، ص ١٤، مرجع سبق ذكره.
١٩ - اللاذقيه. نصوص من الكنعانية، ص ١٣، مرجع سبق ذكره.
★ أسماء المدن والقرى الواردة من رقم ١ـ ٢٤ مقتبسة من قاموس الكتاب المقدس.

الفصل الثاني

البانثيون الكنعاني

● مجمع الآلهة الكنعانية:

البحث عن المعبود مسألة علاقة الإنسان بالوجود الآخر. فمنذ خلق هذا الكائن، ووجد على الأرض راح يبحث بحسه الفطري وحدسه عن قوى تفوقه قوة، وقد ساعدته مشاهداته في هذا البحث المضني الطويل.

رأى النار تلتهم الأخضر واليابس فخافها. وحتى لا تحرقه عبدها وقدسها. رأى دفءها وقوتها ورأى البراكين وحممها تصهر كل شيء وتقذف بألسنتها بعيداً بعيداً. فجأة يسقط شهاب ويغيب في الفضاء، لمعانه يخطف البصر وسرعته هائلة. وحتى يدرأ مثل هذا الخطر. عبد النيزك والشهاب. رأى القمر ليلاً فوجد فيه الأنس والمتعة والهداية في الليل فعبده وقدسه. رأى الشمس وحرارتها ونورها فعبدها وصلى لها. رأى البحر يهيج، وترتفع أمواجه، يبتلع إعصاره كل شيء فخافه وعبده.

وظل ينتقل بتفكيره من معبود لمعبود. أحب الزرع والحصاد، فعبد المطر الذي يسقي الأرض كره الصواعق والجفاف. فعبد الصواعق والرعود والبروق والغيوم. وصار له نوعان من المعبودات. معبودات يخافها،

وحتى يتجنب عدوانها عليه عبدها. ومعبودات يحبها. وحتى تستمر في إسعاده وسعادته عبدها وقدسها.

وحينما استقر وأصبح مزارعا مال بكليته لعبادة ظواهر الطبيعة الخيرة. ولما أصبح تاجرا بحريا وصيادا فكر في معبودة أو معبود اعتبره إله البحار. عشق الجمال الانثوي فعبد الهة صنعها بحسه وذوقه وبديه وسماها ربة الجمال. أحس بعاطفته تجاه المرأة أيا كانت وأحس بالحب فصنع الهة الحب. اعتدي عليه فصار يصنع السلاح ويحارب فجعل لنفسه إلها سماه إله الحرب وآخر سماه إله الحبوب والغلال والانهار والجبال وما إلى ذلك من مكونات طبيعية جعلته يحس بحاجته إليها وعلاقته المتينة بها.

وحتى يكون على صلة أكثر بهذه المعبودات صنع لها تماثيل تجسدها. وبنى لها معابد يقدسها فيها يضع في انيتها الذهب والفضة والبخور والخمور. وقدم لها القرابين البشرية والحيوانية حتى ترضى منه وعليه.

انقسم العالم كما انقسمت المعبودات. وصار كل فريق يدافع عن معبوده. ونتيجة قوة أحد الطرفين تغلبت عبادته على عبادة الفريق الآخر. ونتيجة لضعف أحدهما أيضاً خضع للمعبود الأقوى الذي مثله الفريق الأقوى. وراحت أساليب التأثر والتأثير والنقل الديني تكبر وتكبر وتأخذ الشعوب من بعضها تارة وتسطو على معبودات غيرها تارة أخرى كما تسطو على أرضها ومعبودها وتنسبه إليها، وبذلك اختلطت الأمور اختلاطاً كبيراً. حتى زوّر التاريخ وزور المعبود.

وحتى لا يكون المعبود مثل بقية البشر، أضفى عليه الإنسان صفات خارقة فأدخله في حروبه وإلى جانبه وضد أعدائه. بل وصل الحد به للتساؤل لماذا يشخص الإله؟ لماذا لا يكون محتجباً وله عالمه الآخر والمختلف.

ثم فكر وفكر وتساءل: أيعقل أن يكون هناك أكثر من اله؟ فليجرب عبادة الواحد الأحد. وتصل قناعاته إلى فكرة التوحيد. حيث وجد أنه ليس من المعقول أن يكون للوجود والكون صانعان لأن ذلك يعني التنازع. ورغم

طبيعة عبادته الوحدانية التوحيدية فإنه ظل يتمثل جذوره. ورغم التراكمات الكبيرة ظلت بعض المعتقدات تلعب في توجيه حياته وسلوكياته. ويخلط بين ما هو واقعي وبين ما هو وهمي وبين ما هو أسطوري وبين ما هو ديني.

ومنذ أن عرف الهة الخير أدرك أن هناك نقيضاً يدعى الشر فكون فكرة الإبليس. وتعاظمت هذه الفكرة، وتداخلت فيها القوى الميتافيزيقية والقوى الارضية الواقعية. فأصبح يدرك أن للخير منبعه وليس هذا المنبع هو منبع الشر. لقد اختلطت الأمور لديه ولم يعد مجال لشكه. فهناك حالتان أساسيتان في الوجود حالة الخير، وحالة الشر. وكل منهما تمثلها قوة، قوة الخير تمثلت بالإله، وقوة الشر تمثلت بالشيطان. وتميز الناس، فبعضهم ظل ضمن حدود التفكير الإنساني العادي، وبعضهم الآخر اخترق الحدود وراح يفكر. ويفلسف الأمور ويتعمق في سبر تفسير هذا الوجود فأصبح أمام الأمرين متميزاً. وراحوا يضعونه وسيطاً بين الآلهة وبينهم، أطلقوا عليه اسم الكاهن لأنه يعلم أكثر مما يعلمون ويتحدث بتميّز عن العالمين، صنعوا له اللباس المميّز. وأقام في معبد للآلهة. لكنه انقسم على نفسه شطرين استغل الناس مزقهم واضطهدهم باسم الدين. وزهد بالدنيا وتصوف. وتمتع بحالات فلسفية صوفية.

راح الملوك يحكمون، ويستغلون الوجدان الديني عند الناس فوضعوا أنفسهم مكان الآلهة وقالوا عن أنفسهم إنهم أنبياء أو أبناء الله أو أنصاف الآلهة. لكن الشعوب تدرك الخدعة فتثور فيقتل الملوك. ويظل الوجدان الانقى تجاه الخير هو حسّ الجماهير التي هي صانعة الآلهة، ومقدسة الخير أينما كان، ونابذة للشر أينما شعرت به.

ويصيب المرض هذا الإنسان ويرى أنه لا بد من الفناء إنه آخر المطاف ونهاية كل مخلوق فكر وتساءل أهذه هي الحياة فقط.؟ ألا يمكن أن تكون حياة أخرى بعد الموت؟ لماذا يضع الأجساد في قبور تحت التراب؟ لماذا لا يحرقها؟ لماذا يضعها في كهوف؟ وشقوق في الصخور؟ أين تذهب حركات الإنسان وحيويته وروحه؟ أين يذهب كل ذلك راح يفكر بوسيلة تحفظ الجثة لتعاود حياتها. فاخترع التحنيط، وآمن بالتناسخ والتطهير.

وأدرك أن روح الميت يجب أن ترتاح من عناء التعب، فيجب عدم الضجيج حتى لا تزعج الأرواح ويتدخل رجال بارعون في صنع الحكمة والقدرة على خداع الناس. فمارسوا السحر وأدخلوه في العبادات والديانات. وراحت آلاف الأفكار والمعتقدات الدينية تتشابك وتتراكم حتى تصبح كالفضاء الرحب. وكالسنين الطويلة التي مرت على تطور عبادة الناس.

ومن هنا كان لا بد أن نقول: لقد خلقت الميثولوجيا الكنعانية تماماً مثلما خلقت غيرها من الميثولوجيا عند الشعوب. ومن هنا أيضاً كان لا بد من دراسة شؤون الآلهة والأبالسة والكهنة، والمعابد والقرابين والأضاحي، والمعتقدات حول الأمور الدينية وكل ما يتعلق بمثل هذه الأمور.

حتى بداية هذا القرن لم يكن يعرف عن ميثولوجيا الكنعانيين سوى القليل باستثناء أجزاء تتصل ببعض المعتقدات التي حفظها بعض الكتاب المؤرخين والجغرافيين المتأخرين.

وفي عام ١٩٢٩ اكتشفت ألواح (أوغاريت) رأس شمرا المدينة السورية الساحلية الشمالية وألقى هذا الاكتشاف مزيداً بل سيلاً من الأضواء على هذه المنطقة. وبعد سنوات تم التيقن أن الخط الذي كتبت به هذه الألواح ليس مسمارياً بل هو خط عربي يتألف من ثمانية وعشرين حرفاً. وراحت الجهود تتضافر، وترجمت النصوص إلى الإيطالية والفرنسية والانجليزية ونقلت منها إلى العربية، وأظهرت أمام الباحثين مادة وفيرة عن الأساطير في فلسطين والساحل الشامي.

ومما ظهر في هذه المكشوفات أن هناك مجمعاً إلهياً يقف على رأسه الإله (إيل) وهذا المجمع يضم عدداً من الآلهة والإلاهات، ولكل سماته وصفاته، واختصاصاته. وهناك علاقة أو علاقات بين أعضاء هذا المجمع. وتبدو أكثر وضوحاً في نصوص الأسطورة التي سندرسها ونوردها في فصل لاحق.

ويلاحظ أن المدن الكنعانية ركزت على عبادة الإله (إيل) والإله (بعل) رغم الاختلاف في طقوس الإلهين، لكن عبادة (بعل) انتشرت في كافة المنطقة العربية لفترة طويلة حتى أن كل مدينة اتخذت تمثالاً أو صنماً يمثل

الإله (بعل).

ويضم المجمع الإلهي الكنعاني كلا من:
إيل -بعل- يم نهار- كوثر وحاسيس. عشتروت. عشيرا. أشتار. عناة. موت. سميرنا. توت. عليون. أدونيس. داجون. مولك أو ملكوم. شاباش (شمس) باريح.. وبعض الآلهة الذين لعبوا دوراً ضعيفاً في بناء المجمع والتأثير على الناس.

١- إيـل: الإله الكبير تقول ألواح أوغاريت إن الإله (إيل) جاء نتيجة تزاوج الإله عليون والإلهة عشتروت. وتقول بعض الروايات إن إله السماء تزوج بآلهة الأرض فأنجبت له أربعة أولاد هم (إيل) و(داجون) إله المحاصيل و(سيتون) و(عتل) وعندما بلغ إيل مبلغ الرجال اتخذ الإله توت كاتباً له وكاتماً لأسراره. ويتجلى توت على شكل (جبرائيل) ملاك الرب في الديانات التوحيدية. ثم أشعل إيل حرباً ضد أبيه لأنه أهان أمه الأرض وتعني كلمة إيل القدرة أو القوة. ويعتبر أعظم آلهة الشعوب السامية. وعند اليونان تعني إيل -ايليوس (الشمس) وقد ذكر في التوراة أنه (الله) ومن أسمائه جاءت تسمية اسرافيل. وعزرائيل. وميكائيل وجبرائيل. فالملائكة الأربعة -ملائكة العرش جاءت تسميتها من (إيل) وهي تعني تباعاً رسول الله. وعبد الله. وصفي الله. وولي الله. وعرف (إيل) برب الأرباب أو (إيل ايلوهيم) ويقال إنه كان (لإيل) ابن وحيد يدعى شديداً توهم فيه الغدر يوماً فذبحه.

ويقال إن إله السماء أي والد (إيل) -سلم حربه مع ابنه فبعث إليه ببناته الثلاث (عشتروت) و(سميرنا) و(بعلتي) كي يوقعهن به. لكن إيل استمالهن وتزوجهن، وولد لإيل من عشتاروت سبع بنات يعرفن بالميثولوجي الكنعاني بالترابيات. كما أنه أنجب من سميرنا سبعة ذكور. ثم أنجب من عشتاروت إلهين آخرين هما الشوق والعشق.(١)

ويقال إن إيل هو أول من تزوج بجنية مائية اسمها عين عبريت (عين عفريت). وأنجب منها ولداً وحيداً. وقد نسب (إيل) إلى سام تارة وإلى حام تارة أخرى وقد وحده بعضهم مع إبراهيم الخليل. وادعت جميع الشعوب

السامية بما فيها العربية نسبتها إليه.

ويقال إن مكانه ومكان إقامته هي في جزيرة أو المجدبة التي هي خلف الاوقيانوس.

○ **صفات إيل:** يقول فيلو الجبيلي:[٢] إن إيل كان يملك أربع عيون. عينان إلى الأمام وعينان إلى الوراء. عينان مفتوحتان، وعينان نائمتان. ويعني ذلك أنه كان بمقدوره أن ينام متيقظاً ويستيقظ وهو نائم،[٣] ولأن أباه اضطهد أمه حاربه وأسره، ووضعه في قاع المحيطات فهو بهذه الصفة تميز بكرهه للظلم.

والشعب الكنعاني الذي يقدس إلهه (إيل) لا يحترمه لصفاته المميزة فحسب بل إنه يرى فيه إلهاً غير مشخص. وهو خالق السموات والأرض وجميع البشر. وإيل يمثل الفكرة التوحيدية الأولى مثل الإله (شمس) تبلور. ومثل الله في الدين الحنيف أي دين إبراهيم التوحيدي.[٤] والإله إيل لا يحاور الناس كبقية الآلهة. بل يتجلى بشكل حلم أو وحي أو إلهام. وفي النصوص الأوغاريتية لم يظهر (إيل) للناس مشخصاً كما هو حال بقية الآلهة مثل عناة. وبعل. وعشيرا التي تتدخل في شؤون الناس وتظهر لهم.

وفي بعض التفاسير الأوغاريتية جاء أن (إيل) أبو الآلهة يقيم في حقوله عند منابع الانهار وقد دام حكمه الفعلي ٣٢ عاماً. ثم يرد أنه شاخ وعجز. ولكي يثبت وهم الآلهة التي ظنت أنه شاخ. طلب منها أن يتزوج من إلهتين. ويخصب منهما وتنجبان له ولدين يسميان. الفجر والغسق[٥] ويتضح من خلال العبارة الكنعانية لـ(إيل) أن أهم صفاته هي أنه الأبدي. خالق المخلوقات وأبو البشر والآلهة. لطيف وشفوق، وإله المحبة والسلام، والمحتجب الذي لا يُرى. وحتى تثبت أبديته لم يرد أنه مات أو فني. وحتى عندما أشيع أنه شاخ ووصل الى مسامعه ذلك طلب الزواج من إلهتين ثم أنجب منهما.

وترى بعض النصوص أن للإله -إيل أولاد كثيرون غير بعل وعناة وهم الملائكة وعددهم سبعون. منهم خمسون ذكراً وعشرون أنثى. وقد أطلقوا

على إيل صفة العظمة والرحمة ويعتبر الكنعانيون أنفسهم شعبه الخاص.[٦]

ويتميز أيضاً في توزيع المكرمات كإهداء الندى والطل كما أنه يجلب الموت بواسطة أولاده الملائكة، وله سلطان على بعث الأموات. ويظل المرجع الاساسي في حل مشاكل الآلهة وصراعاتهم، وبناء المعابد، وما شابه ذلك من أعمال، لا يقوم بها سواه، ولا ينافسه أحد من الآلهة. فأعماله خاصة به. وهو الحاكم المطلق. واعتقد الكنعانيون أن مقر (إيل) يقع في منطقة في الغرب عند مغيب الشمس. وقد سمي مقامه بحقول إيل.

ويرى العلامة (شيفر) أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق فوق الجميع يدل بوضوح على ميل الكنعانيين لتقبل عقيدة التوحيد.[٧]

٢ - عشيرة، أو أشيرة: من الملاحظ أن لفظة عشيرا ما زالت تأخذ مجراها في الحياة الاجتماعية العربية إلى اليوم. وتعني بكل أشكالها الزوجة او الشريكة. وهي في الميثولوجيا الكنعانية زوجة الإله (إيل) وهي إلهة الثروة. وكان لها أعداء وأتباع. وكان أعداؤها إذا أرادوا إذلالها يفتحون بيت اللعنات. وهو على شكل معبد يدخل إليه المتعبدون ويأخذون بشتمها.

وتعتبر عشيرا الإلهه الام وأحياناً ترد بأنها إلهة البحر.[٨] وكان من أسمائها ثلاثمئة لقب. منها يوه، ياه، ديدا، عنت، تنيت، الزهره، أرتميس، أوروبا، بعلتي، اللات، الفرقد، حنة، نعمة. وقد عبدها الكنعانيون باعتبارها الهة بحرية طوفت في كل أنحاء العالم الفينيقي الكنعاني البحري أو الساحلي وكانت برفقة إله صيدا.

وتقول الاساطير إن عشيرا خرجت من زبد البحر. وأنها خلال تطوافها على طول الساحل الشمالي الافريقي أسست مئة مدينة أهمها (قرطاجة) في تونس.[٩]

وتتدخل عشيرة بشؤون الآلهة الأخرى، فهي تمنع الإله -بعل من قتل

الإله (يم نهار) وتذهب الإلهة عناة إليها كي تتدخل لدى الإله إيل للموافقة على بناء معبد يليق بالإله (بعل) ويبدو أن هذه الإلهة كانت ذات خطوة أولى لدى كبير الآلهة إيل، وأن أولادها السبعين هم أولاد (إيل) وبإمكانها أن تعمل دون موافقة الإله (إيل) زوجها، وربما وقعت في تناقض معه، فتراه لا يحجم عن إتهام زوجته بقيامها بأعمال سخيفة. وقد تبنى بعض الكنعانيين عبادة عشيرا وصاروا من أتباعها وذلك لأجل مصالحهم الشخصية.

ويقال إن عشيرا هي التي خلقت الملك الكبير وفق تكوين بقية الآلهة. بمعنى أن الملك دوماً يكون ابن الإله إيل والإلهة عشيرا.

٣- عشتاروت: وقد يعتبرها بعضهم (عشيرة) نفسها غير أن نصوص أوغاريت توضح أن صفات (عشتاروت) أو (عشتار) تختلف عن صفات عشيرا. فعشتار عند الكنعانيين تقف إلى جانب قوى الشر ضد عشيرا، وتقف بصف (بعل) الذي يمثل أحياناً آله القسوة. وهي إلى جانب تلك الآلهه الرئيسة في كل من دولتي بابل واشور وقد أطلقوا عليها (عشتار) وكذلك في المدن الفينيقية الكنعانية على ساحل المتوسط. وهي آلهة واحدة في المناطق العربية القديمة كلها. إلا أن اسمها والقليل من طقوسها يختلفان من مكان لآخر. اختلافاً سطحياً. وهي ربة الأمومة أحياناً. وهي نفسها الإلهة (إينانه) عند السومريين. وكذلك سماها اليونانيون (استرتي).

وكان (لعشتار) هذه أساطير وتقاليد معروفة خاصة بها. وكانت عبادتها تنطوي على كثير من الإشكالات الأخلاقية. وقد رمز إليها مع الإله (بعل) إلى القمر والشمس. وانتقلت عبادتها إلى الغزاة العبرانيين أيام الملك سليمان الذي أدخل عبادتها متأثراً بطقوسها في (صيدون) عندما كان اليهود يحتلون جزءاً من شمال فلسطين.(١٠)

٤- أشتار أو اثتار: وهو ابن عشيرا وتقول الأساطير إن (بعل) يغيب بموته سبع سنين فتقترح عشيرا تنصيب ابنها (أشتار) في عرش (بعل) الخالي. ويعتلي (أشتار) العرش لكنه يجد أن قدميه لا تبلغان مسند القدمين

وان رأسه لا يصل قمة العرش، ولهذا يهبط عنه ويعلن عجزه عن الحكم في مرتفعات صفون.(١١)

٥- كوثر وحاسيس: ويتركب الاسم من اسمين أو جزأين. ويعتقد البعض أن الاسم هو اسمان لإلهين والحقيقة أنه إله واحد ذو مهمة مزدوجة.

ويظهر هذا الإله في عدة أساطير بعلية. وهو إله الحرفيين أو إله الحصاد. ويرد ذكره في أسطورة الصراع بين (بعل) و (يم نهار) حيث يظهر كوثار وحاسيس وهو يسلح (بعل) بسلاح سحري (ياغروش) أي المطارد ويسلحه بسلاح سحري آخر اسمه (عيمور) أي السائق ونتبين أن الإله كوثار وحاسيس يقف إلى جانب بعل في صراعه مع أعدائه ويرد مرة أخرى في أسطورة تشييد معبد بعل. حيث يرسل بعل في طلبه فيأتيه ويستقبل بحفاوة بالغة. ويدور جدال بين (بعل) و (كوثار وحاسيس) حول فتح نافذة في المعبد، ويرفض بعل اقتراح (كوثار وحاسيس) لكن رأي الأخير يتغلب وتفتح نافذة فيه.(١٢)

٦- (يم نهار): ويم أو اليم يعني البحر ونهار تعني النهر فهو إله البحر والنهر. ويرد ذكره في أسطورة (بعل) والمياه ويحدث صراع بينه وبين الإله (بعل) لكن الأخير ينتصر على (يم نهار) ويأسره ويحاول قتله لكن (عشيرا) تتدخل وتمنعه من قتله وتذكره بأن (يم نهار) هو أسيرهم الآن. ويمثل (يم نهار) بغطرسته الجانب العدائي في البحار والأنهار فهو يهدد بغمر الأرض وتخريبها.

٧- موت: وتعني اللفظة نفسها الموت. ويمثل هذا الإله العالم السفلي. ويرد ذكره في الصراع الذي يدور بينه وبين (بعل) يرهب الإله (موت) الإله (بعل) حيث يبعث له رسالة تهديد بالفناء إن لم يقدم له الاعطيات والتقدمات، ثم يظهر الإله (موت) حين تقبض (عناة) عليه فتقتله وتشطره نصفين ثم تذروه بمروحتها وتحرقه بنارها وتسحقه بمطحنتها وتبذره في الارض. ثم يظهر (موت) مرة أخرى ليتصارع مع (بعل) بعد قيامه من الموت. ويدمي الإلهان نفسيهما كثورين هائجين فتأتي الآلهة (شاباش) (شمس) وتفصل بينهما. ويجري التوصل إلى مصالحة ما، فيسترد بعل

عرشه.

٨ـ سميرنا: لا يرد ذكرها إلا نادراً وهي إحدى بنات بعل الثلاث وربما كانت نفسها الإلهة التي عبدت في سورية الداخلية باسم (سمير أميس) وقد عبدت هذه الإلهة في بلاد الرافدين باسم (ساموارمات) وقد اهتموا بعبادتها لديهم أكثر من الكنعانيين. وعلى هذا فهي إلهة سورية داخلية وليست ساحلية.

٩ـ بوصيدون: وهو الإله الذي يوحد بـ(كنعان) أو ابنه ويقال عنه إنه أول من جعل البحار مطية له. وقد رافقته الإلهة (عشتاروت) في تجواله على ساحل المتوسط وقد عبده الكنعانيون من أهل صيدا وجنوبها.

١٠ـ مولك أو ملكوم: ويرد ذكره أنه إله بني (عمون) الكنعانيين. وتعني مولك (ملك) وقد كان العمونيون يذبحون له ذبائح بشرية ولا سيما من الأطفال. ويقال إن صنمه كان من نحاس وكان جالساً على عرش من نحاس، وكان له رأس عجل عليه إكليل، وكان العرش والصنم مجوفين وكانوا يدقون الطبول لمنع صراخ الضحية التي يحرقونها في جوفه.[١٣]

١١ـ أدونيس: يظهر الإله أدونيس كإله فينيقي كنعاني مركز عبادته جبيل (بيبلوس) المدينة الواقعة على الساحل الشامي شمال بيروت اليوم بعدة كيلو مترات. ويبتدى وقد حلّ محل الإله (عليون) والإله (موت)، وليس هناك خلاف كبير بين نصوص أوغاريت الأدونيسية وبين (تموز) البابلية فكلاهما ولدته أمه وقد سحرت نفسها إلى شجرة المر. ومن جذعها ولد، وقد عشقته أخته أفروديت وخبأته خوفاً من أخته الأخرى إلهة العوالم السفلى عند الآسيويين عامة. وظهرت شخصية الإله أدونيس متوحداً مع الإله الدمشقي (أشمون) وقد أشاعته جبيل في مجمل العوالم الكنعانية الفينيقية في سورية ولبنان وفلسطين. ونتيجة الصراع بين الأختين فقد حكم عليه أن يعيش نصف العام في العالم السفلي ونصفه الآخر فوق الأرض.

وقد كانت عبادته في الساحل اللبناني أقوى العبادات. ويعتبره دارسو الميثولوجيا الفينيقية أنه يخص لبنان وحده، رغم أن بعض الدلائل

الميثولوجية ترى أنه قد عبد في الساحل الشامي برمته.

١٢ـ داجون: (بجن) وهو إله الحبوب والمحاصيل وقد كان مركز عبادته في سورية الداخلية ودمشق وكلمة (داجون) تعني بالكنعانية ـ الحنطة وكان له هيكل أو معبد للفلسطينيين في مدينة (بيسان) وتقول روايات الكتاب المقدس التي يشك في صحتها إن الفلسطينيين عندما انتصروا على العبرانيين الغزاة في معركة جلبوع أخذوا رأس (شاؤل زعيم الغزاة وعلقوه في معبد (داجون) في بيسان).[١٤]

١٣ـ عناة: وتعتبر هذه الإلهة من أهم أفراد المجمع الإلهي الكنعاني فهي تتدخل كشخصية مهمة في كافة مجريات الأمور في الأساطير الكنعانية تقريباً ويطلق عليها ـ العذراء ـ وهي الممثلة للرسالة العائلية الاجتماعية الواضحة، وتسمى الخطابة ويقدسها الكنعانيون لأنها سنت طرقاً شرعية منطقية للزواج وهي أخت الإلهة (إيلات) وابنة (إيل) و(عشيرة) وكان الفتيان يعبدونها بحرارة واضعين عند قدميها عربون الولاء.

وتوصف بإلهة الحكمة فكانت عطوفة، وتؤدي دور الوسيط المثالي عند إيل.[١٥] ولم تكن عناة تتورع عن توجيه اللوم إلى أبيها (إيل) بسبب حياته الثرية. وهي عالمة جداً بالأمور الإلهية والأرضية. ولم تكن متواضعة، وهي تحل المشاكل التي لا يقدر عليها إله غيرها.. و(عناة) لا تحب العلاقات العابرة بين الجنسين لا بل تشجبها.[١٦] وهذه الإلهة جميلة جداً وتوصف بأنها إلهة زراعية تملك قوة تدعى القرن. ومن الطبيعي أن تكون أخت الملك الكبير روحياً وكانت تسدي له النصح، وتكون دوماً مستعدة لتقوم بدور الاستطلاع عند اللزوم. ولذلك يجب أن تمنح أجنحة لتطير وترى ما يجري على الأرض. ومن مهامها مسخ الرؤساء[١٧] وتأمر النساء وتنصحهن بإخفاء ألسنتهن حتى يستريح السيد (الإله الأكبر)، وتشجب (عناة) السراري والأجنبيات وترغب دوماً في طردهن بعد عملية النصح.

وكانت في الوقت نفسه قائدة وبخاصة لشعب أمورو أي فلسطين الشمالية. وقد وقفت دوماً إلى جانب (بعل) حتى أنه لا يمكن قراءة أسطورة

عن بعل إلا وتدخل عناة فيها.

فهي من أحباب بعل وأنصاره ضد أعدائه امثال (موت) و(يم ونهار). وقد دخلت في حرب مع الإله (موت) مساندة لأخيها الإلـه (بعل) وتضطر لذبح أعدائه بعد أن تقيم لهم وليمة. وتخوض في دمائهم حتى ركبتيها وتتدخل لدى (عشيرا) كي تتوسط لدى الإله (إيل) لتشييد دار لبعل..

وعندما يعثر على بعل ميتاً تهيم (عناة) على وجهها بحثاً عن شقيقها، ثم تقبض على الإله (موت) وتشطره بسيفها. وتظهر عناة أيضا في أسطورة (أقحات) حيث تطلب القوس المقدس منه لكنه يرفض ثم تلجأ إلى (ياثبان) أحد أفراد الهة الحرب ليتحول إلى عقاب، ثم ينقض على (أقحات) ويقتله. ولكن (عناة) تندم على فعلتها. ورغم ذلك فإنهم يطلقون عليها حمامة السلام.

١٤ـ جوبان وأوجار: وهما إلهان يرسلهما (بعل) كمبعوثين وسفيرين للآلهة ولا سيما إلى الإله موت ويرد اسماهما بشكل اخر. غاين وأوغار.

١٥ـ شاباش: وتعني آلهة الشمس وهي التي تتدخل لتفصل بين (موت) و(بعل) عند صراعهما الذي دار لامتلاك العرش.

١٦ـ هناك آلهات ثلاث وهن بنات (بعل): (بدراي) وتعني الضياء وواضح أن الاسم مشتق من البدر، وتلاي وهي آلهة الندى ونلاحظ أيضا أن الاسم مشتق من الطل. الندى و(إرساي) وتعني إلهة الأرض وأرساي كما نرى مشتقة من إرساء الأرض وتقويتها واستقرارها وتركيزها وكما يرد أيضا أن الجبال رواسي في الأرض.

١٧ ـ رحمايا: وهي زوجة أخرى للإله (إيل) وتلد له الإله، ساليم كما تلد له (عشيرا) الإله شاهار ثم تلدان. الاثنتان معاً زوجاً اخر من الآلهة يظهر أنهما إلها البحر. و(رحمايا) تعني إلهة الرحمة. وعندما تلد للإله (إيل) شاليم إي السلام فإن ذلك يدل على ارتباط بينه وبين طبيعتها الرحيمة المسالمة.

١٨ـ نكّال: إلهة الثمار تتزوج هذه الإلهة من ياريخ أو (يرح) إله القمر. وواضح ان العلاقة بينهما هي علاقة القمر بتلوين الفاكهة ونضجها.

١٩ـ يرخ: إله القمر وقد جاءت الكلمة أيضا من يريحو او أريحا وهي مدينة القمر.

٢٠ـ حاريبي: وهو إله الصيف ووالد نكّال.

بعل: يعتبر الإله بعل اهم الآلهة الكنعانية بعد (إيل) على الإطلاق ويرد اسمه على شكل اخر يدعى (حدد) وهو إله زراعي معروف. حيث يسوق الغيوم والأمطار والأنهار ويرد أنه إله الصواعق والبرق ويرد باسم (بعل تعقون) الذي يتبدى في المفهوم الشعبي على هيئة (جوبيتر). وهو ابن الآلهة (عشيرا) ويقال إن (لبعل) ثلاث بنات هن روح الحصاد، وروح الربيع، وروح المحاصيل. وكان يضحى للأخيرة في موسم الحصاد. وهي التي حملها (الهكسوس) اثناء غزوهم لمصر.

وحسب النصوص الاوغاريتية يرد أن (بعل) إله عظيم القدرة، وأحياناً يرد بأنه اله الشؤم كرسيه فوق الغيوم وينتقل عادة في مركبته مما أعطاه لقب ممتطي الغيوم. وتقول الاسطورة إنه يتعب أحياناً. فيطالب بكرسي ليستريح عليه. وتلذ لهذا الإله أرزاء البشرية يحب العقاب وهو الذي يأمر بالاعاصير، ولا يتردد في النيل من الناس بيديه حتى أنه لا يتردد في مصارعتهم.

لم يكن (لبعل) أتباع رسميون في البداية. ثم انتشرت عبادته، وصار له معابد لكنه لم يكن ليتأثر بالصلاة، ولهذا الإله أتباع خارج نطاق الشعب الكنعاني اذ نرى أن ملك دمشق المدعو (ابن داجون) كان على استعداد دوما لنصرة اتباع الإله (داجون)[١٨] حليف الإله (بعل)، ويحتفظ بعل بقوة هائلة. وقد خلعه أبوه الإله (إيل) عن عرشه وسلطانه. ومع ذلك كان على (إيل) ان ينسق دوما الأمور معه كيما يقوده إلى الرأفة.[١٩]

ويعتبر (بعل) إله الموت وله القدرة على إحياء الموتى وبعثهم كما أن له سلطانا على إذلال الانسان الحي. وزوجته تدعى (عشتار) وقد ينزل بعل

إلى الارض فيحرق الزيتون أو يمنح الشجر الثمار . وهو إله مهيب يمكن أن يشفي ويبعث . ولما كان إلهاً للجحيم فبالقرب منه يسكن الأموات ، بعد أن توارى الاجساد في التراب . ويُطلب من (بعل) إعادة الحياة إلى الفتية الذين قتلهم الملك الكبير (اخوة الملك) . وهو حاكم كنعان في وقت من الاوقات .(٣٠)

وكلمة بعل تعني زوج أو سيد أو رب . وقد أولع أهل الشرق جداً بعبادته . حتى أنهم كانوا يضحون بالذبائح البشرية على مذابحه . وقد عبده العبرانيون وقدسوه متأثرين بالكنعانيين وكانت عبادته عمومية . ولذلك نرى له أسماء كثيرة . وما ذلك إلا لان كل أمة كانت تسميه باسم يتناسب مع معرفة أقوامها ، وكان الاسم من أسمائه يبتدىء ببعل وينتهي باسم البلاد أو المدينة الموجود فيها وأحياناً يبتدىء الاسم ببعل وتلحقه صفة من الصفات .

من ذلك نرى (بعل فغور) (بعل زبوب) (بعل بريث) أي رب العهد وهو الإله الذي عبده الكنعانيون في شكيم (بنابلس)(٣١) و(بعل تامار) أي إله النخيل و(بعل جاد) ومعناه معسكر (بعل) و (بعل حاصور) أي بعل الساحة و (بعل حرمون) أي بعل جبل حرمون و (بعل صون) أي إله الشمال و (بعل فراصيم) أي إله الانفجارات و(بعل هامون) أي بعل الجمهور و (بعل معون) ومعناه بعل السكن .(٣٢)

ويُكلف (بعل) بمحاربة قوى الشر والعماء فيقتل (لوثان) التنين ذا الرؤوس السبعة . ثم يتصارع مع إله البحار والأنهار (يم نهار) ومن ثم يتصارع والإله (موت) ينتصر على الأول لكنه يخضع لإله العالم السفلي (موت) ويموت بعل سبع سنوات ثم يعود إلى الارض . ويتصارع مع (موت) ولا يغلب أحدهما الآخر . ثم تفصل إلهة (الشمس) بينهما ويستقر العرش (لبعل) ثم يموت سبع سنوات أخرى بسبب غرقه في مستنقع بعد أن توقع به الوحوش الإلهية البرية .

يتدخل بعل في أسطورة (أقهات بن دانيل) ويؤثر في مجريات الأمور والأحداث في كافة الأساطير الكنعانية . وسنعود لدراسة أسطورة بعل وما يلحقها من رموز في فصل آخر من الكتاب .

٢٢ ـ شيتمانات : وهي ابنة الملك (كريت) وهي إلهة الشفقة والحنان ، ومعناها الثامنة ويبدو أن لها أخوات سبع أكبر منها .

٢٣ ـ شيتاقات : وهي إلهة الشفاء وتتدخل في شفاء كريت بعد أن تحلق فوق مئة مدينة وبلدة لإيجاد الدواء أو لإيجاد مخرج يشفي (كريت) من مرضه ويحالفها النجاح .

بعد هذا العرض لأسماء الآلهة واختصاصاتهم نرى أننا أمام مجمع إلهي حافل بالنشاطات الإلهية ويبدو أن بعض هذه الآلهة مثل (عناة) و (بعل) يلعب دورا رئيسا في الميثولوجيا الكنعانية . بل إن أساطيرها تعتمد كلياً عليهما . ويبدو (بعل) محوراً رئيساً في تلك الاساطير حتى أن الإله الكبير (ايل) لم يكن يتدخل في الامور التي قام بها الإله (بعل) ولعل التشابه الواضح بين أسماء بعض الآلهة وآلهة الشعوب الأخرى المجاورة يُظهر تداخلاً كبيراً . وعملية التأثر والتأثير والسرقة والانتحال سندرسها في فصل لاحق حتى نستطيع إظهار ما للأسطورة من تأثير هائل في التوراة اليهودية وأدبيات العبرانيين .

● المعابد والطقوس والمعتقدات :

ترتبط الديانة الكنعانية وأساطيرها بطقوس ومعتقدات كثيرة كبقية أساطير تلك الشعوب التي عاشت فيما قبل الميلاد .. وجميعها يدخل ضمن هذا التراكم النوعي والكمي لتلك الديانة وكما ورد فإن تقديس الكنعاني للآلهة جعله يصنع لها المعابد والهياكل ، ويقيم فيها الشعائر والطقوس .

وتكثر المعابد والهياكل حتى أنه وجد في كل مدينة وكل قرية هياكل وتماثيل ترمز لأشكال الآلهة . كبيرة كانت أم صغيرة مهمة كانت أم ثانوية .

تقام المعابد في الأماكن المرتفعة غالباً . ولكل إله معبده ، والآلهة إن كانوا يمثلون الذكور أو الإناث فهم جميعاً أبناء الإلهة (عشيرة) ومن المعتقدات الكنعانية أن حرق المعبد يعتبر خطيئة كبيرة . وكانت معابد أولاد الإلهة (عناة) تقام في الساحات العامة من المدينة أو البلدة .



نصب نقش عليه رسم للإله «بعل» من «اوغاريت» (= رأس الشمرة)

ويعتقد أن قصر الملك عبارة عن معبد تقام فيه الشعائر . فقد ورد في النصوص أن القصر الملكي يعج بالتماثيل التي تمثل أفراد الآلهة ، وهناك إشارات لوجود تمثال للإله (إيل) ، وتمثال يشير إلى الإلهة (عناة) وكذلك بقية الآلهة وجميعها داخل القصر .[٢٣]

وكان للإله (بعل) معبد كبير في نابلس حتى أن الغزاة اليهود عبدوه وصلوا له في ذلك المعبد وذلك في زمن (القضاة).

ومن أهم معابد الكنعانيين معبد في بيسان (بيتشان) وقد ورد أن الفلسطينيين عندما انتصروا على الغزاة اليهود وردوهم ، قتلوا ملكهم شاؤل وعلقوا رأسه في المعبد. وذلك بسبب اعتدائه مع اليهود على بلاد العرب الكنعانيين ، وكان معبد للإله (بعل) في (عقرون) شمال فلسطين. أما عن بناء المعبد فقد ورد أنه يحاط بأعمدة كبيرة الحجم ، وهي غالباً من الحجارة الكلسية وقد بني معبد (لبعل) في مدينة المجدل الواقعة قرب غزة في جنوب فلسطين. وكذلك بُني معبد آخر لبعل في وادي (جبعون) وأقيم فيه عدد من الطقوس ، ويعتقد أن مكانه اليوم (رأس السناه)[٢٤] وورد أن الفلسطينيين كانوا يمارسون طقوس إقامة الأصنام والنصب في الغابات ، وهي تقتضي على ما يبدو إقامة نصب تذكارية للملوك المتوفين.

وقد ورد في نصوص أوغاريت أن معبداً أقيم للإله (إيل) بين (نابلس) و (القدس) لكنه كان يغص بالتماثيل والأصنام التي تمثل الآلهة المعاونة للإله الأكبر ، كما عثر على معبد آخر للإله (بعل) في جبل الكرمل وبعض مناطق الساحل الشمالي لفلسطين. إضافة للمعبد الكبير الذي أقيم للإله (بعل) في (أوغاريت) زمن الملك الكبير.

ومن الطبيعي أن هذه المعابد كانت تغص بالكهنة والنساء المقدسات اللواتي يقدمن أنفسهن للرجال إكراماً للإله -(بعل) ولم ترد سوى إشارة واحدة إلى هؤلاء النسوة.[٢٥] وأعتقد أن مصدر ذلك هو التوراة والغاية منه تشويه العلاقات الدينية عند الكنعانيين.

ومن أهم الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت الكاهن الأكبر (أيلو ملكو) وهو كاهن أوغاريت. وهو الذي دوّن اللوحات الكنعانية وفيها

تاريخ الكنعانيين وأساطيرهم. وكان هذا الكاهن رئيس مقدمي القرابين والمطهرين. وقد عاصر هذا الكاهن الملك (نيكمد) الذي شهدت في زمنه بلاد كنعان الويلات وبداية الاستعمار العبري. وامتدت هذه الويلات من (رأس شمرة) شمالاً إلى جنوب فلسطين مروراً بلبنان. وقد دوّن (ملكو) أخبار الملك الكبير السابق على عصر الملك (نيكمد) الذي يعتقد أنه ليس من الشعب الكنعاني.[(٢٦)]

ويشابه (إيلو ملكو) في القيمة والتأثير كاهنٌ آخر اسمه (ملكي صادق) بل إن بعض المصادر تتحدث عنه باعتباره شبيهاً بالأنبياء لكثرة ما كان متسامحاً. واسمه يعني ملك البر أو الملك الصادق.. وكان (ملكي الصادق) ملكاً على أورسالم وكاهناً للرب العلي[(٢٧)] وقد أخرج خبزاً وخمراً للنبي إبراهيم في وادي (شوى) وكان ملكي صادق محافظاً على سنة الله (إيل) بين شعب وثني ولذلك كانت له الأسبقية على إبراهيم وعلى الكهنة الذين تسلسلوا منه.[(٢٨)] وقد بارك ملكي صادق (إبراهيم) باسم الإله (إيل) وتقبل إبراهيم بدوره البركة، وقد ورد في العهد الجديد ٥/٦ أن السيد المسيح اعترف هو نفسه بكهنوت ملكي صادق.[(٢٩)]

● الطقوس والعبادة:

مر معنا أن الكنعانيين اهتموا ببناء المعابد، وأكثروا منها في المدن والقرى وساحاتها العامة، ويعتبر الخمر من أهم الأشياء التي تقدم في المعابد، ولعل صبه موصى به لأن السماء تلتذ به ويمكن أن ينهي تقنينه حالة الجفاف.

وتعتبر صلاة الكنعاني العنصر الأساسي في العبادة. ومن طقوسها التضرع والصراخ أمام الآلهة. ولا تقتصر تأدية الصلاة على الناس بل تشاركهم بها الآلهة.

ويعتقد الكنعانيون أن الحجارة والنباتات تؤديان الصلاة، ويجب تكرار الصلاة حتى تكون مجدية. وتبدأ عادة بعرض الحالة الحاضرة، ومن ثم

يأتي دور تعداد الصفات الإلهية مع الإشارة إلى حالة المتضرع، وتتركز الدعوات على طلب إنهاء المصائب وعودة الازدهار والبعث من جديد. وتكون الصلاة خالية من أية دعوة ضد الآخرين إلا في حالة توجيهها للأبالسة.[(٣٠)]

ولعل التطهير من أهم العادات الطقسية، ويتم بغسل اليدين والوجه، وهو مفروض على كل الناس. وعادة ما يأتي التطهير بعد كل معركة، ويقصدون به الاغتسال من جريمة سفك الدماء حتى ولو كان صاحبها من الأعداء.

ويلحق التطهير الغرف والبيوت والأدوات. وعند الصلاة يرفع المصلي عينيه إلى السماء وهو واقف. ثم يركع. وأخيراً يرتمي على الأرض. وعند الصلاة للإله (بعل) يجب على المصلي خلع ثيابه وتعليقها بجواره. ولا بد للكنعاني من التعرّي بشكل كامل حتى تكون صلاته صحيحة.

وعند الصلاة الجماعية في المعابد كان يحرق البخور. ويقصد منه طرد الأبالسة، وهو طقس شعائري ظلت آثاره الاعتقادية إلى عصرنا الحالي، وإلى جانب البخور فإن الكنعانيين كانوا يقدمون الطعام والنذور للآلهة.

ومن الطقوس المحببة للإله إتلاف أصنام الشعوب الأخرى. وكان الكنعاني يقدم القرابين من الخبز والطحين إلى الآلهة أو إلى أصنامها التي تمثلها لا سيما في الغابات. ويذبحون الحيوانات، ويصبون الخمور فوق الأضرحة لاعتقادهم أنها تسقي أمواتهم الذين هم في العالم الآخر أو العالم السفلي ومن المرجح أن دم الذبائح كان يصب في المقابر.[(٣١)] والأضاحي والقرابين تقدم من الأغنام والثيران والأيائل والوعول والظباء. وكانوا يصطادونها حية.

ويعتقد الكنعاني باستحضار روح الميت ويعتبر هذا الاستحضار جزءاً من الديانة الكنعانية فكانوا يعملون على إيقاظ روح الميت، وقد انتشرت عبادة الأرض والأموات والآباء والأجداد لفترة زمنية طويلة بين أبناء الشعب الكنعاني.

وتدخل المعتقدات عالم الديانة الكنعانية كما في حضارات الشعوب

المصرية والبابلية والآشورية وغيرها.

ومن تلك المعتقدات يرون أن الأرض مغطاة، أو مغلفة بثلاثة أغطية لحمايتها، فإذا ارتفعت أغطية الأرض الثلاثة تصبح الأرض معرضة للأذى، وبالتالي تصبح فريسة للأرزاء. ويعتقدون أنه بإمكان الآلهة قياس الأرض ومعرفة مساحتها، واللعنة من أهم المؤثرات الاعتقادية لدى الكنعانيين، ولا يقتصر صب اللعنة على البشر فالآلهة تلعن الآخرين كما يمكن أن تلعن نفسها. وتفضل لعنة بعض الآلهة التي تمتلك لها معبداً خاصاً حتى تصيب اللعنة المعبد وتماثيله.

وترى بعض المعتقدات أن كل إله يمكن أن يجرب عباده لمعرفة ما إذا كان يستطيع الاعتماد على تعلقهم به أم لا.

ويدخل في معتقدات الكنعانيين التفاؤل والتشاؤم، فاليوم الذي يبدأ بسلسلة من الأفعال السيئة هو يوم مشؤوم ويسمونه يوم الجحود، ويقابل هذا الاعتقاد إيمان بالقدر الذي هو محتوم من قبل الآلهة.

ويرون أن للعين قوة الحسد وأن نساءً محددات قادرات على إطفاء قوة العين والكراهية والحسد.

ومن أهم المعتقدات المتعلقة بالإله (إيل) الدهان والمسح ويرون أن لبعض الألوان التي يدهن بها الإنسان جسده قوة سحرية، ويعتقدون أن للكلام قوة لا تتزعزع، وهي بمثابة حكم قضائي حتى أن الإله (إيل) إذا ما نطق بخير سوء فلا بالمستطاع محوه إلا بموجب عملية تطهير.(٣٢)

● عالم الشر في المعتقدات الكنعانية:

تبرز لنا ونحن نبحث في معتقدات الكنعانيين خطوط هامة تشير إلى الوجه الآخر من الحياة ولما كانت أعمال الإنسان قد ارتبطت بالصواب والخطأ، والأمان والخراب فإن الكنعاني يحمل ما يقع فيه من مصائب وكوارث وأخطاء على عالم الشر الذي يمثله (إبليس) وجيش الشياطين، لقد أدرك الكنعاني من خلال رؤيته للوجود أن الحياة لا بد أن تعاش ضمن

متناقضات متباينة في الطبيعة ومتباينة في الأسباب.

رأى النهار ورأى نقيضه الليل رأى الطيب ورأى نقيضه الخبث ورأى الخير ورأى نقيضه الشر. وقد أدخل في نفسه أن لا وجود للإله (إيل) دون وجود عدو يكيد له ولأتباعه ويوقع الناس في الكفر والطغيان، وأدرك أن للشياطين أرواحاً. وهذه الأرواح الشريرة تتحالف مع بعض الآلهة ضد الناس، وتتآمر مع بعض الأعداء ضد البلاد.

وقد حمّل الكنعاني إبليس صفات كثيرة، منها أنه الذي يدس، وصاحب الفتنة والدهاء والمتحالف مع قوى الشر من الآلهة، وهو دليل المتوفين وحارس الأموات، وقد جعلوا للأبالسة زعيماً ويقال إن (بعل زبوب) الإله المعبود في عقرون الكنعانية الفلسطينية هو رب الطب وإنه يشفي المرضى لأنه سيد الشياطين.(٣٣)

ويرد في نصوص (أوغاريت) أن الإله (بعل) يأمر الشياطين الذين هم بأعداد كثيرة كالجيش ويدمرون كل شيء، ورئيس الشياطين المباشر هو حارس الأموات ودليل المتوفين، وبإمكانه إطلاق قوى الغيب من عقالها، والسيطرة على العدو بأياد خفية(٣٤) ورئيس الشياطين هو مستشار الملك، وقد يتذلل له.

أما صفات إبليس فهي أن وجهه قاسٍ بصورة عامة، وباستطاعته التنكر، ليبدو بمظهر الصديق، ولكن سرعان ما يفصح عن نفسه في الوقت المناسب، وعندئذ يجلس إلى يمين مضيفه بعد أن يكون قد دبر مؤامرته، ولا تؤثر اللعنة في إبليس وإذا ما دعا سيده فلن يصبح من الممكن تغيير شيء في سير الأحداث، وإذا ما أسدى النصح يجب العمل بعكس ما ينصح به لأنه كاذب حتى في نصحه، ولحارس الأموات طقس خاص به، ويمتاز إبليس بخاصية المكر المؤدي إلى تدنيس المقدسات، وقد يفرح للمخزيّ وخزيه، ويضحك ممن يتخبط في سبيل التخلص منه. وأحياناً يدعو الملك الأبالسة إلى مائدة خاصة به ويمكن أن تقدم الذبائح لرئيس الشياطين.

وكان الكنعانيون يرون أنه من الضروري تجنب إبليس وحضوره حين تقدم التقدمات والأضحيات للإله (إيل).

وحراس الأموات (الأبالسة) لا يمثلون إلا في العالم السفلي حيث تكون مهمتهم السهر على الأموات وتعليمهم عادات الحياة بعد الموت.

وقد يشكو الناس مصائبهم للآلهة والأباليس معاً لما للأبالسة من قوة تدمير، وهناك قوى يدعونها (فوق الطبيعة) تأتمر بإمرة (بعل) وقد أطلقوا عليها القوى السماوية. والأبالسة وحدها تستطيع التغلب عليها بواسطة أياد خفية وهذه القوى يمكنها تدمير البلاد.

ويعتبر اجتماع (بعل) و (عشتاروت) و (الأبالسة) تحالفاً مقابل الجانب الآخر من الآلهة الذي يمثله (إيل) و (عناة) و (عشيرة) وقد أدى هذا التناقض إلى صراع عقائدي بين الكنعانيين. وقد وقف الملك الكبير بين العبادتين، لكن موقفه كان ضعيفاً لأنه حاد عن عبادة (إيل) واتبع عبادة (بعل).

وثمة معتقد لدى الكنعانيين يعتمد على فتح ما يسمّى (بيت اللعنات) والمقصود به كما ورد سابقاً أن معبداً أو بيتاً كالمعبد يدخل إليه الإنسان، ويتعرى، ويأخذ بشتم الآلهة التي تقف ضد مصلحته. وكان أعداء (عشيرة) و (عناة) عندما يريدون إغضابهما يفتحون هذا البيت وكان من مصلحة عشيرة عدم فتحه لأن ذلك يسيء لها وعبادتها.

أما عن الروح فإن الكنعاني يعتقد أن الميت يصبح ظلاً، أي روحاً لأن الجسد يفنى في التراب، والظلال الموجودة في الجحيم لها صفة العتمة فهي ليست نورانية.(٣٥)

والأرض حبيبة الجسد الميت، فيقول الكنعاني: ذهب الميت قرب حبيبته الأرض ولا يجب إزعاج روح الميت، حتى أنهم اعتقدوا بأن الميت يمكن أن يعقد قرانه على فتاة أو امرأة من عالمه وينجب منها أولاداً.

هذا هو إبليس وهذه هي طبيعة الشر وطبيعة الصراع بين الخير والشر، لقد أخذت هذه الطبيعة لدى الكنعانيين منحىً جدياً، وقد كشفت ألواح (أوغاريت) عن أساطيرهم وديانتهم، وأوضحت أن الكنعاني كان قريباً من ديانة التوحيد بسبب عبادته للإله (إيل) وقد حارب قوى الفوضى والدمار

والشر المتمثلة بإبليس، ومن يحمل في روحه الميل إلى الشر والتدمير.

○ المراجع :

١ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٦، دار ابن خلدون.
٢ - فيلو الجبيلي مؤرخ أوغاريتي دافع عن الميثولوجيا الكنعانية عاش حوالي عام ١٢٠٠ ق.م.
٣ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٧، مرجع سبق ذكره.
٤ - إيلي ملكو، ترجمة: نيل مينكو. اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ١٨٠، ترجمها إلى العربية: مفيد عرنوق، مرجع سبق ذكره.
٥ - صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٦٤-١٦٥.
٦ -
٧ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٤، مرجع سبق ذكره.
٨ - نقلا عن العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسه، مرجع سبق ذكره.
٩ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٥٨، مرجع سبق ذكره.
١٠ - العهد القديم، سفر الملوك الأول.
١١ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٥، مرجع سبق ذكره.
١٢ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٥، مرجع سبق ذكره.
١٣ - قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٢٨.
١٤ - قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٣٤-٩٣٥.
١٥ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٥، مرجع سبق ذكره.
١٦ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، النص الأول، مرجع سبق ذكره.
١٧ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، النص الثاني، مرجع سبق ذكره.
١٨ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٤٨، مرجع سبق ذكره.
١٩ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٨٥، مرجع سبق ذكره.
٢٠ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٨٥، مرجع سبق ذكره.
٢١ - قاموس الكتاب المقدس، ص ١٨٢-١٨٣-١٨٤.
٢٢ - قاموس الكتاب المقدس، ص ١٨٤.
٢٣ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٨٧، مرجع سبق ذكره.
٢٤ - قاموس الكتاب المقدس، ص ١٨٣.
٢٥ - قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٨٦.
٢٦ - اللاذيء. نصوص من الكنعانية، ص ٨٢، مرجع سبق ذكره.
٢٧ - العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٤ - الآية ١٨-١٩.

٢٨ـ قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٢٢.
٢٩ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ٣٥، مرجع سبق ذكره.
٣٠ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ٣٦، مرجع سبق ذكره.
٣١ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ١٢٩، مرجع سبق ذكره.
٣٢ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ١٢٦، مرجع سبق ذكره.
٣٣ـ عباس العقاد، إبليس، ص ٤٥.
٣٤ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ٣٦، مرجع سبق ذكره.
٣٥ـ اللاذقي، نصوص من الكنعانية، ص ١٣٤، مرجع سبق ذكره.

الفصل الثالث

نصوص الأساطير

• ماذا تعني الأسطورة:

لعل مفهوم الأسطورة من أكثر المفاهيم التي واجهت وتواجه تعقيدات كثيرة لا سيما في تعريفها، وبسبب حداثة مناهج دراستها فإن الآراء اختلفت حول منشئها ورموزها، ولهذا أيضا فقد لجأ كل من علماء الآثار (الاركيولوجيا) وعلماء دراسة الإنسان (الانثروبولوجيا) إلى وضع أسس دراسية مختلفة. فكل منهم نظر إلى الأسطورة من وجهة نظر مغايرة وذلك بسبب طبيعة دراسته التي تختلف عن طبيعة دراسة الوجهة الأخرى.

وكثرت التداخلات، وأصبح لعلماء التاريخ رأي في تفسير الأساطير وتعريفها من وجهة نظر تاريخية وراح الجميع يخلطون بين العلوم ويفصلون، حتى أصبح لدينا عشرات المصطلحات المنتهية بـ(لوجيا) و(غرافيا) وما إلى ذلك من بقية المصطلحات.

وإذا كان للعلماء وجهات نظر مختلفة ومتباينة. وتعاريف متنوعة فإن تناول مفهوم الأسطورة يختلف من بلد لآخر ومن مدرسة لأخرى ومن

ايديولوجية لثانية .

لقد اعتبرها بعضهم فناً أدبياً أمثال (فرند فيليب) فهي في نظره نوع من الإبداع الأدبي الذي ظهر على شكل جزئيات متفرقة، ثم ترابطت فيما بينها وشكلت تكاملاً في الأجزاء التي ظهرت على شكل أسطورة .

ورأى بعض المفكرين المفسرين لظواهر الطبيعة منشأ بخلق الأسطورة، فالخسوف والكسوف والزلازل والأعاصير أوحت جميعها للإنسان بإيحاءات كثيرة خلقت لديه حساً بتأليف أسطورته رابطاً بين ما شاهده وبين خوفه من تلك الظواهر وتفسيره لها .

وتبرز لنا المدرسة الفرنسية التي ترى في الأسطورة شيئاً من التاريخ . لقد تناولت أسطورة الشعب الفرنسي ووضعت تعاريف محددة تتطابق مع وجهة النظر الفرنسية التي ترى في الأسطورة رؤية تتناسب مع تاريخها وشخصيات هذا التاريخ . وما إلى ذلك .

وتأتي المدرسة البريطانية لتخلط بين الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وبين علم الآثار وراحوا يمدون الدراسات بتعاريف تختلف ورؤى تتغاير .

من المدرسة الفرنسية خرج الدكتور (دي ريجمون) بتعريف للأسطورة في كتاب له بعنوان (الحب والغرب) يقول فيه «يمكن أن نقول بصفة عامة: إن الأسطورة قصة أو حكاية رمزية بسيطة ومؤثرة تلخص عدداً لا ينتهي من المواقف المتشابهة قليلاً أو كثيراً . أو بالمعنى الضيق للكلمة تترجم الأسطورة قواعد السلوك عند الجماعة الاجتماعية أو الدينية بعينها وتنتمي بالتالي إلى العنصر المقدس الذي تكوّنت حوله هذه الجماعة . والأسطورة لا مؤلف لها بعينه ويتعين أن يكون أصلها غامضاً . وأن يكون معناها نفسه غامضاً إلى حد ما . ولعل أعمق سمات الأسطورة أنها تتمكن منا رغماً عنا .(١)

ويرى الباحث الفرنسي (إلياد)(٢) في كتابه (جوانب من الأسطورة) أنه من الصعب تعريف الأسطورة تعريفاً يقبل به كل العلماء . ومع ذلك فإنه يضع شبه تعريف يقول فيه: «تروي الأسطورة قصة مقدسة وحدثاً وقع في الزمان الأول- زمن البدايات الخرافي، يتم بفضل الكائنات الخارقة

للطبيعة» .

ويرى بعضهم أن (الأسطورة تقدم تفسيرات لعلل التغير الحادث والكائن في الظواهر الكونية وعلاقة هذه الظواهر وعللها الغيبية بالإنسان . وأنها تدور حول ما أطلقوا عليه مأساة القدر ومحوره وفشل الإنسان وعدم قدرته على تحقيق هذا الفعل من الناحية الثانية) . ويرى آخرون أن الأسطورة أداة للتعبير عما يمكن تسميته بالإتجاه العام، فهي على الرغم مما تحويه من عنصر الخرافة عبارة عن مخلوقات غريبة ووقائع مستحيلة، تصبح في مجمل الموقف الذي تفرضه ومن خلال الشخصيات التي تنوء بحمل هذا الموقف .(٣)

ويرى بعضهم أن الأسطورة عبارة عن قصص حكيت عن بعض شعائر وطقوس اختفت أو في سبيلها إلى الاختفاء . ومن ثم فهي لا تزيد عن كونها مناسك منطوقة .(٤)

ولعل أكثر التعاريف اتفاقاً بين العلماء والباحثين يرى (أن الأسطورة قصة أو مأثور يحمل بالطبع والضرورة سمات العصور الأولى والقديمة، مفسرة معتقدات الناس بإزاء القوى العليا والسماوية الهتهم، وأنصاف الهتهم، أبطالهم،، وخوارقهم ومعتقداتهم الدينية، وكما يذكر سير (م.ل جوم) فإن غرض الأسطورة هو التفسير بالإضافة إلى الغايات التعليمية، والاعتقادية، فالأسطورة تفسير لقضايا أو أصل العلم وجوهره في عصور ما قبل العلم .(٥)

ويتفق الباحثون أن هناك أنماطاً من الأساطير تختلف فيما بينها في الهدف والسبب وهي:

١ - أسطورة الطقس Ritual myth .. ويعتقدون أن هذا النمط هو الأقدم في الأسطورة وتتولى هذه الأسطورة سرد قصة أو تصف الموقف وتجسدها .

٢ - أسطورة الأصل: وتدعى الأسطورة السببية التكوينية Aelio lyicul . وتنحصر وظيفتها في إعطاء تفسير خيالي لأصل عادة ما أو اسم أو مادة .

٣ - أسطورة الصيت Pristig myth . وتقوم على تقديم هالة من الغموض والاعجاز حول بطل شعبي كما في قصص الطفل المعبود .

٤ - أسطورة العبادة : Cult myth . وتجري في معابد محلية متعددة وتقدم القرابين بواسطة الكهنة .

٥ - أسطورة البعث : وهي القائلة ببعث الإنسان بعد الموت . وتضيف حول هذا البعث هالة من الغرائب والحوادث والمتخيلات . والاسطورة هنا امتداد للرمزية . وهذا ما ينطبق على ما وصلنا في التوراة .[٩]

وعلى جميع الاحوال فإن الاختلاف في الآراء حول تعريف الأسطورة لن يقف حائلاً بيننا وبين إيراد الأساطير الكنعانية التي عثر على قسمها الأكبر في ألواح أوغاريت . وما تناقلته المأثورات الاخرى عن أساطير الفلسطينيين القدماء ، والتي وردت في مكتشفات (تل العمارنة) في مصر . وفي نقوش المغاور في جبل (الكرمل) و (أريحا) و (مجدو) و (عسقلان) و (بيسان) وغيرها من الأماكن التي عاش فيها الكنعانيون منذ الألف الثالثة ق.م .

وقبل أن نتعرض لنصوص الأساطير الكنعانية لا بد من الإشارة إلى ترجمات عدة تناولت النصوص . وترجمها العالم (فيـرولـلو) وحديثاً ترجمها العالم (غينسبرغ) والعالم (غاسر) والعالم (غوردن) والعالم (درايفر) وقد اختلفوا بشكل واضح في ترجماتهم وتفسيراتهم للمادة الموجودة في الألواح وقد ترجمها أيضاً الأستاذ (ديل ميدكو) ١٩٤٣ وأنجز التحقيق فيها عام ١٩٤٧ . وقد درسها وترجمها إلى الإيطالية حيث اطلع (ديل ميدكو) على ما ترجمه العالم (شيفر) رئيس البعثة المكتشفة لألواح أوغاريت .

وقد جاءت ترجمة العالم (سيروس هـ جوردون) مفسرة للحدث الاسطوري ورموزه معتمداً على العالم (فيـرولـلو) وجاءت ترجمته أقرب إلى النص الاسطوري القصصي المترابط . وسنجد امامنا مصدرين اساسيين لهذه النصوص .

١ - المصدر الأول كتاب اللآلىء. نصوص من الكنعانية للعالم (ديل ميدكو) وترجمة الباحث (مفيد عرنوق).

٢ - المصدر الثاني الأساطير الكنعانية (لغوردون) والمدونة في كتاب أساطير العالم القديم للعالـم صموئيل نوح كرايمر .

بالطبع فإنه لا وجود لخلاف ما في الخطوط الرئيسة للنصوص ، إلا أن كتاب اللآلىء يحوي لغة وتراكيب وجملاً تحتاج لجهد وربط حتى يصل المرء لصيغة الأسطورة بشكلها القصصي الملحمي المترابط ، ولذلك فإن ما جاء في كتاب أساطير العالم القديم أقوى ترابطاً وسبكاً وأوضح صيغة .

ونجد أن النصوص التي علق عليها بل نسقها الباحث صموئيل هنري هووك هي من أقوى المراجع الثابتة والمثبتة للنصوص بصيغتها القصصية المروية وذات النسق الأسطوري ، إضافة لأساطير كنعان المثبتة بصيغها القصصية المروية والمثبتة في ألواح أوغاريت سنجد كثيراً من الأجزاء الأسطورية التي تتحدث عن العماليق الجبابرة في فلسطين . وكذلك أسطورة كنعان نفسه كأب للكنعانيين . إضافة لأساطير أخرى مثل أسطورة الخلق وأسطورة قابيل وهابيل وما إلى ذلك من موضوعات أسطورية أخرى .

● أسـطورة كنعـان :

ورد آنفاً أن كلمة (كنعان) حورية الأصل (وهذا أحد الآراء) وتعني الصبغ الأحمر وهو الصبغ الذي كان الكنعانيون يصنعونه ويتاجرون به .

جاء في بعض المصادر أن (كنعان) هو ابن (حام) بن (نوح) وفي التوراة يدعي اليهود أن نوحاً زرع كرماً وسكر من عصيره فثمل وانكشفت عورته فجاء (حام) وراءه فسخر وضحك منه . وبعد أن تنبه نوح صب لعنته (ملعون كنعان ابنك يكون عبداً لعبيد أخوته) .

وهذه اللعنة لحقت حام حيث اسود وجهه ولحقت بابنه البكر (كنعان) وذريته ، ومن يومها أصبح كنعان ملوناً فهجر أخوته وهام على وجهه ، وتدعي التوراة أن هذه اللعنة جعلت كنعان ونسله عبيداً لباقي أخوته

ونسلهم.

وجاء في سفر التكوين، (ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد أخوته)[٧] وهذا الادعاء التوراتي ليس له أساس من الصحة لاعتبارات كثيرة سندرسها في فصل لاحق من هذا الكتاب.

أما في إحدى أساطير الخلق البابلية التي تتفق مع أساطير مدينة (صيدا) يبدو (كنعان) أخاً (لحام وليس ابنه) ويقال إن (بعل كرونوس) ولد (بعلا) اخر هو (كنعان) ومن (كنعان) جاء الكنعانيون كما أن (بعل كرونس) ولد (حاما) الذي يسميه اليونان (أسبول) وكان أخاً لمصرائيم وأباً للاثيوبيين والمصريين. وقد اعتبرت الكشوف الكنعانية أن (كنعان) أخ (لأوزريس) وكان أول من سمي (فينيقس) فكانت أعياد قيامة الإله المصري (أوزريس) تقام في مدينة (جبيل) الفينيقية الكنعانية، كما أنه في مكان الاسكندرية القديمة أو (فـاروس) كانت تقام أعياد (أدونيس) وشعائره والذي هو أحد آلهة الكنعانيين الفينيقيين. وقد جعلوا من كنعان أخاً لأوزريس دلالة على وحدة النسب بين الأمتين الكنعانية والمصرية.[٨] وعلى الرغم من الاختلاف في وجهات النظر حول هذه المسألة، فإن الطابع العام المتفق عليه هو أن كنعان أبٌ للكنعانيين الذين هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية عام ٣٠٠٠ ق.م. وهم من الشعوب العربية وليسوا من الحاميين وقد دفع الجفاف هذه الشعوب إلى الهجرة واستيطان أرض فلسطين قبل مجيء العبرانيين على مسرح الأحداث بحوالي ٢٠٠٠ عام، على وجه التحديد. واعتماداً على أقدم المصادر وهو (سنكن يتن) أو (سنحوينتن) المؤرخ الكنعاني الذي سبق المؤرخ (فيللو الجبيلي) بـ(حوالي ٤٠٠ عام). نرى أن تاريخ كنعان يبدأ منذ بداية الخليقة. وبشكل أدق (البيضة الخالقة) فبعد أن لقحت الريحُ البيضة الخالقة وبعثت فيها النفس الخالق، أخرجت ذرية (كنعان) من (فينيقيا) الذين ولدوا من الإنسانين الأولين أو الخالقين وهما الدهر (بون) و(بروتوجون) أو حواء البكر المولودة الأولى ومنهما جاءت ذرية كنعان وعددهم مئتان وسموهم (النار) و(النور) و(اللهب) وبعد ذلك أنجب هؤلاء الكنعانيون أولاداً ضخام الجسام. طوال القامات وسميت الجبال

التي سكنوها بأسمائهم وهي (قاسيون)، و(لبنان)، و(حرمون) وولد من صلب هؤلاء الأولاد (ضخام الجسام) بعد زواجهم من نساء (بلساميم) أولاد (شميم روم) أي المرتفعات في السموات العليا وهو (بعل شميم) أي رب السموات.

وتزوج (عليون) بالإلهة الحسناء (بيروت) أو (عشتاروت) فأنجب منها إله السماء وأخته إلهة الأرض. أما عليون فقد هلك خلال صراعه مع الوحوش البرية الضارية.

وقد عبده أولاده وصار إلها، وخلفه ابنه إله السماء الذي تزوج من أخته إلهة الأرض فولدت له أربعة أبناء هم (إيل) كبير الآلهة، و(داجون) إله المحاصيل و(سيتون) و(عتل).

وينسب لـ(بوصيدون) وهو بكر كنعان أنه أول من تسلط على البحار بأمر من أبيه (إيل) كما يُنسب لـ(عشتار) البحرية أنها بنت على الساحل المتوسطي مائة مدينة.[٩]

وقد لقبت المصادر التوراتية الكنعانيين بالصيدانيين لعدة أسباب، منها أن صيدون هو الابن الأكبر والبكر لكنعان، ومنها أيضاً أن صيدا أصبحت لفترة من الفترات مركز الحضارة الكنعانية بعد (القدس) و(نابلس).

ويعتقد سكان قرية (كفر ناحور) في جنوب لبنان أن قبر كنعان موجود تحت إحدى الصخور الموجودة هناك، كما يقال إن النمرود بن كنعان هو باني قلعة بعلبك.[١٠]

● أسـطورة إيـل:

تبدأ أسطورة (إيل) بأسطورة الخلق حيث يرد أن (إيل) يخلق الأرض والسماء ومن ثم يقيم لنفسه مكاناً يستقر فيه عند منابع الأنهار، أو عند مكان غروب الشمس.

ويعتبر (إيل) القاسم المشترك الأعظم لروافد (الميثولوجيا) العربية. ويوحد بعض الباحثين أمثال (رينان) (ابراهيم) النبي مع (إيل). ومعنى الاسم (إيل) أو (إيل إيلوهيم) رب الأرباب ومعناه أيضاً القوة والقدرة. وعند

اليونان يطلق على (إيل) اسم (إيليوس) أي الشمس، ويذكر بنصه في التوراة على أنه (الله) ومنه جاءت تسمية (يعقوب) بـ(اسرائيل) ومعناها ولي الله بالسريانية الآرامية.

وتحكي أسطورة الخلق الكنعانية عن خطايا متلاحقة ارتكبها إله السماء، ومن هذه الخطايا زواجه بنساء كثيرات أنجب منهن ذرية لا حصر لها، ومن أكبر الخطايا أن هذا الإله هجر زوجته إلهة الأرض وحاول قتل أبنائها مراراً وبلا هوادة، ولكن ابنه الأكبر (إيل) ينجو من قتله له حيث تخفيه أمه حتى يكبر، وعندما يبلغ أشده يتخذ الإله (توت) أو (تحوت) إلهاً للكتابة الذي عرفه الساميون فيما بعد بالملاك (جبريل) وصار كاتم أسراره. ثم أشعل حروباً طاحنة ضد أبيه بسبب إهانته لامه الأرض وبعد أن انتصر (إيل) على أبيه وتمكن من اصطياده وحبسه في أعماق الهاوية بنى مدينة له وعرف فيما بعد ذلك بـ(إيل إيلوهيم). ويقال إنه كان لإيل ولد وحيد يدعى (شديدا) توهم فيه الغدر يوماً فذبحه بيديه وبعد ذلك فعل الشيء نفسه مع ابنته.

وبسبب أفعاله هذه خافته الآلهة وامتلأت قلوبهم رعباً. وعندما سئم أبوه إله السماء من منفاه وسجنه بعث إليه بابنتيه (عشيرا) و(ريا) للإيقاع به ولكن (إيل) استمالهما وتزوج منهما وولد (لإيل) من (عشيرا) سبع بنات يعرفن بالميثولوجي الكنعاني (الطيطات) أو الترابيات. كما أنه أنجب من أختها (ريّا) سبعة ذكور، وعاد فأنجب من (عشيرا) ابنين آخرين هما (الشوق) و(العشق)، وبعد أن حكم (إيل) ٣٢ عاماً عاد فأوقع بأبيه بعد أن نصب له الفخاخ. وحين أصبح بين يديه مزّق أطرافه وأعضاءه وألقى بها مع دمه في مياه الأنهار والآبار. ثم وزع (إيل) ملكه اللا محدود على أبنائه فأعطى (عشتاروت) ملك أتيكة وهي جزء من بلاد اليونان. وأعطى جبيل للإلهة (بعل) ووهب (بيروت) (بوصيدون) إله البحار، وعندما تفشى الوباء في ممالكه المترامية ذبح ابنه الوحيد المتبقي ترضية لأبيه إله السماء.

وينسب لـ(إيل) أنه أول من تزوج من امرأة جنية مائية اسمها (عين عفريت) (عين عبريت) وأنجب منها ولداً وحيداً، إلا أنه عاد فذبحه، ويرد في بعض الأساطير أن حيتان البراري أسرته واحتجزته في إحدى الجزر القريبة من (الجزر البريطانية). وينسب (لإيل) الذي أصبح (كرونوس) عند اليونان. كما يقول (فيللو الجبيلي) إنه كان يملك أربع عيون عينين إلى الامام وعينين إلى الخلف. عينان مفتوحتان وعينان نائمتان. ومعنى هذا أنه كان بمقدوره أن ينام وهو متيقظ ويستيقظ وهو نائم.[٣]

وفي القسم التاسع من ألواح أوغاريت نرى أن الحديث يدور حول حقول (إيل) الفردوس أما في القسم العاشر فنرى أنه يتحدث عن الإله (إيل) المسن فيقول النص: عند ساحل البحر تخلق امرأتان من النار وتكون الآلهة مجتمعة تتساءل هل يبقى (إيل) بدون أولاد؟ وهل تظل الفتيات دون أولاد؟ أم أنه يقوم من عجزه ويمارس رجولته؟. ويسمع إيل هذه التساؤلات فيأخذ المرأتين المخلوقتين من نار إلى بيته. ويتزوجهما فتفرح الآلهة ويفرح الناس من عبدة (إيل) وتحمل المرأتان وتنجبان له إلهين هما: (الفجر) و(الغسق). ويفرح إيل رغم علمه المسبق أن الوليدين سيأتيان ثم يعاود ممارسة الزواج من زوجتيه، فتحملان مرة أخرى وتنجبان له إلهين ماردين شرهين وهما إلها الخصوبة.[١٢]

ويرد أيضاً في نصوص أوغاريت أن (إيل) خرّف وجدف واتهمه ابنه (بعل) بذلك حين أمر (بعل) أن يخضع للإله (يم نهار) إله البحار والأنهار.

وكان الثور هو الحيوان المقدس لـ(إيل) ومن ألقابه (الثور إيل) وتقول المكتشفات في أوغاريت إن (إيل) أنجب ولداً سمي (كريت) وكان (كريت) ملكاً على (سدوم) فأمره أبوه إيل بغزوة تقودها ابنته الإلهة (تيرا) أو طيرة لتأديب جماعة (زبولون) الذين أخذوا بغزو أرض كنعان. وكان جماعة (زبولون) وهو أحد أسباط اليهود حسب رأي التوراة قد احتلوا منطقة تبدأ من جبل الكرمل حتى بحيرة (طبرية).

والمدقق في حملة (طيرا) يرى أنها قد سارت على الطريق الساحلي حتى جبل الكرمل. وتقول المصادر إن (طيرا) انتصرت على الغزاة. وارتأت أن تقيم معبداً للإله (إيل) في جبل (الكرمل) وأطلقت عليه اسم كرم

(إيل) أي كرم الله أو جنته . وارتأت أيضاً أن تقيم على سفح الكرمل قرية أو مدينة محصنة وأسمتها باسمها (طيرة) وهي مكان قرية الطيرة الفلسطينية الحالية التي تقع على بعد ١٢ ك.م جنوب شرق حيفا . وقد أقام الصهاينة عليها قرية سموها (كريات كرمل) ولا يزال اسم إيل متواتراً في التسميات العربية والسامية بشكل عام فمنه جاء اسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرائيل ، وبتول ومنه سميت مريم العذراء بالبتول نسبة إلى انتسابها إلى بيت إيل . ومنه أيضاً خليل واسماعيل ودانييل وإيزابيل وراحيل إلى آخر ما هناك من أسماء تنتهي بكلمة (إيل).

○ هامش :

روى لي بعض أهلـــي ومعارفـــي من قريتنـــا في فلسطين طيرة حيفا. أو طيرة الكرمل أنه يوجد في جبل الكرمل مغاور وكهوف بعضها ليس له حد . وإن إحدى المغاور يسير فيها الإنسان مسافة تزيد على الخميس متراً ليجد نبع ماء ، لا يستطيع أحد أن يجتازه . وإن جدران بعضها كتب عليها بحروف لا تفهم ورسومات لثيران وبعض الحيوانات . وتنبهت إلى أنهم يسمون المغارة .طقسة وأعتقد أن الكلمة تدل على (الطقس) أي العبادة وجمعها طقوس وتقع هذه المغاور في (عراق الشيخ) و (عراق الأحمر).

وروى لي والدي أن جده قد جلب جرن ماء شكله مستطيل إلى القرية من الجبل وصاروا يضعون فيه الماء ليسقوا دوابهم . وأظن أن هذا الجرن ما هو إلا قبر صغير منحوت من الصخر . وروى لي أنهم كانوا يعثرون دوماً على أوان فخارية وخزفية وتماثيل صغيرة لم يكونوا لينتبهوا إلى قيمتها الأثرية .

● أسـطورة بعـل :

تعتبر أساطير (بعل) والبعلية أساس الأساطير الكنعانية ومحورها .

ففي النص ٣٧ من ألواح أوغاريت تبدأ ملامح أساطير بعل الإله المهم بعد (إيل). تقول الأسطورة إن (بعلا) يُكلف بمتابعة عملية الخلق التي بدأها أبوه الإله (إيل) فيغزو قوى الفوضى والعماء التي يمثلها التنين ذو

الرؤوس السبعة (لوثان). ويقتله بعد صراع طويل. ثم يتابع عمله حيث يسوق الغيوم، ويرسل البروق والرعود لإظهار قوته . لكنه أيضاً يوزع الأمطار الخيّرة في فصلها لإخصاب الأرض.

يحدث خلاف بين (إيل) وابنه (بعل) ويبدو أن هذا الخلاف هو بسبب تخطي (بعل) لصلاحياته مما يؤدي إلى أن يشق (بعل) عصا الطاعة على أبيه ويميل (إيل) إلى ابنه الآخر (يم نهار) إله البحار والأنهار . يغضب (بعل) لهذا الإنحياز . وتقع ضغينة قوية بينه وبين (يم نهار) مما يحدو بالأخير إلى الطلب من (إيل) الموافقة على تسليم (بعل) له والتخلص منه ويبعث (يم نهار) رسله ومبعوثيه إلى مجلس الآلهة طالباً تسليم (بعل) ويحني الآلهة رؤوسهم فزعاً ويعدون بتسليم (بعل) إلى رسل (يم نهار) يعلم بعل فيأتي إلى مجمع الآلهة ويؤنبهم ويوبخهم بعد سؤاله الاستنكاري لهم (لماذا أحنيتم أيها الآلهة رؤوسكم على ركبكم، حتى على عروش سيادتكم)[١٣]. ثم يهاجم (بعل) مبعوثي (يم نهار) وتتدخل (عناة) و (عشتاروت) وتكبحان غضبه، لكنه يتصارع مع (يم نهار) يتدخل الإله (كوثار وحاسيس) إلى جانب (بعل) ويسلحه بسلاحين سحريين هما (يغرش) أي المطارد و (عيمور) أي السائق، يهاجم (بعل) (يم نهار) بسلاح (يغرش) ويضربه بصدره لكن (يم نهار) لا يسقط ثم يضربه على جبهته بسلاح (عيمور) فيخرَ على الأرض . وبعد ذلك يقترح (بعل) وضع نهاية لـ(يم نهار) لكن (عشتاروت) تمنعه وتذكره بأن (يم نهار هو الآن أسيرهم) فيخجل (بعل) ويترك عدوه على قيد الحياة .[١٤]

وفي النص ٦٨ من لوحات أوغاريت يأتي ما يوضح هذا الصراع :

تنقض العصا من يد بعل كالصقر
كالصقر من أصابعه
فتضرب منكبي الأمير يم بين عيني النهر القاضي
فيترنح ويسقط على الأرض .[١٥]

وبهذا الانتصار لـ(بعل) على (يم نهار) يقام حفل كبير تدعو إليه عناة شقيقة (بعل) وحليفته تدعو للحفل الأصدقاء والأعداء، وتزين نفسها

بالمساحيق الحمراء. وتصبغ شعرها بالحناء استعداداً للوليمة. تقفل أبواب القصر الواقع عند جانبي الشمال فوق جبل (صفون) وتقدم على ذبح كل أعداء (بعل) تتقلد رؤوس المذبوحين وأيديهم وتخوض في الدم حتى ركبتيها وفي العامود الثاني من لوحات (اوغاريت) يرد ما يوضح هذه الحادثة الاسطورية: فيقول النص:

من تحتها طارت رؤوس كالعقبان
ومن فوقها طارت أيد كالجراد
تنزل حتى الركب في دماء الأبطال.

وتظل (عناة) تعترك بالعصا والقوس حتى تدرك قصرها. لكنها لا تشبع. فتحارب بعنف حتى تنتصر. ثم تغسل يديها من دماء الجلود. وتغسل أصابعها من دماء الكتائب. وبعد ذلك تحل بركات السلام. وتستنبط الماء من ندى السماء. ومن مطر راكب الغيوم والسحب شقيقها (بعل).

بعد هذه الحادثة الاسطورية يبعث (بعل) برسالة إلى (عناة) يطلب منها الحضور إليه فتلبي الدعوة وتسرع إليه وتصل قبل المبعوثين الذين عادوا بعد أن سلموها الرسالة وتكون سرعتها بسبب خوفها من مصيبة تظن أنها حلت بالإله (بعل) لا سيما أنها ترتاب حين ترى الرسل ويخفق قلبها. وهي في الطريق إلى بعل تعدد انتصاراتها بدءاً من أسر (يم نهار) إله النهر العظيم والبحر إلى سحق التنين ذي الرؤوس السبعة وتدمير بيت (بعل زبوب) إله الذباب وزعيم الشياطين. وكل هذا الحديث يدور على مسمع مبعوثيْ (بعل) (جوبان وأوجار) ثم تصل (عناة) فيحتفل بها (بعل) ويذبح لها ثوراً ويشويه فتأكل ثم تغسل يديها بالندى والماء ويدور حديث بين (بعل) و(عناة) حيث يعدد لها أماكن العبادة التي أقيمت للآلهة فهناك مسكن للإله (إيل) ومسكن لـ(عشيرة) ومساكن لـ(بدراي) و(إرساي) و(تلاي) والعرائس الشهيرات. ويتساءل بعل: لماذا لا يكون له معبد خاص به؟، فيطلب من عناة أن تتدخل لدى الإلهة الأم (عشيرة) كي تقنع بدورها الإله (إيل) بالموافقة على تشييد معبد لـ(بعل). تقتنع (عشيرة) ثم تركب إلى حيث يقيم (إيل) فتتملقه وتمدحه. فيوافق على أن يقام المعبد من

الخشب والقرميد. لكن (بعلا) يرفض ذلك لان المعبد بهذا الشكل لا يليق بمقامه، غير أن (عناة) تسرع إليه وتقنعه أن يبني بيتاً من الذهب والفضة. يبعث (بعل) برسله إلى الاله (كوثار وحاسيس) إله الحرفيين فيأتيه مسرعا، فيستقبله بحفاوة بالغة ويقيم له الولائم. ثم يتحادثان حول بناء المعبد. فيحدث خلاف بينهما حيث يطلب (كوثر) من (بعل) أن يوافق على فتح نافذة في جدار المعبد فيرفض (بعل) معللا ذلك بأن أعداءه من اتباع (يم نهار) سيتلصصون عليه وعلى مخططاته. ويرى (بعل) أن لديه ثلاث بنات هن (بدراي) و(إرساي) و(تلاي) ولا يريد أن يتلصص عليهن أحد من الاجانب لكن رأي (كوثر) ينتصر، ويأخذ بتشييد معبد أو دار لـ(بعل).

وتحدد الأسطورة الأوغاريتية مساحة المعبد أو الدار فيرد في النص ان المعبد يقام في مرتفعات جبل (صفون) وسيشمل ألف فدان أما القصر فمساحته عشرة الاف هكتار وسيجلب له الذهب والفضة من وسط الجبال والتلال. ويقام المعبد من خشب الارز المقدس ثم تحرق نار لمدة سبعة أيام يخرج القصر بزاقاً لماعاً من الذهب والفضة اللذين زيناه من جميع جوانبه.

بعد إنتهاء العمل يفرح بعل فرحاً شديداً، فيدعو الآلهة والأم (عشيرة) وأبناءها السبعين لحضور الوليمة العظيمة التي ستقام إبتهاجاً بإنهاء العمل في المعبد أو الدار ولايكتفي بعل بدعوة الآلهة. بل يدعو الحيوانات كالغنم والثيران وأشياء أخرى. وفي غمرة الفرح يعلن (بعل) نفسه إلهاً لجميع الآلهة وسيدا عليهم، وتأخذه العزة ويغمره الغرور بما حققه من منجزات.

ونتيجة لتسلطه هذا فإن الإله (موت) يرفض الاعتراف بملكه وسلطته. وكان (بعل) قد انتصر على إله البحار والأنهار (يم نهار) وحتى تكتمل له السيطرة على العالم في الأرض فإنه يبعث رسله بقيادة (جوبان وأوجار) إلى الإله (موت) ليخبراه ان (بعل) لن يقدم الاعطيات له ولن يخافه. لكن (موت) ينذر الرسولين إنذاراً شديداً ويهددهما بابتلاعهما إذا لم يعودا يخاف الرسولان. ويعودان أدراجهما إلى (بعل) ليخبراه بما حدث.

لم يتمهل (موت) بل يبعث بقواه الإلهية وأتباعه فيستولون على الغابة

وسفوح الجبال ويبعث (موت) تهديداً لـ(بعل). يخاف (بعل) ويرتعب ويبعث برد متواضع للإله (موت) يستعطفه كي لا يحاربه أو يقتله.

ويرد في النص ٧٦ في لوحات أوغاريت أن المباحثات والمفاوضات تنقطع بين (بعل) و(موت) حيث تتم المواجهة رغم خضوع (بعل) لـ(موت) حيث يقول له:

يا أيها الإله موت
إني عبدك بل لك إلى الأبد
فيفرح الرب موت
ويعلن خضوع (بعل) له نهائياً[١٦]

وفي غمرة الأحداث يُعثر على (بعل) ميتاً، دون سبب. تذهب الآلهة إلى الإله (إيل) رب الأرباب ويخبرونه بموت (بعل) وما أن يعلم -ورغم خلافه السابق مع ابنه- بعل- يحزن حزناً شديداً. ويهبط من عرشه، ويفترش الأرض، ينثر الغبار على رأسه، ويلبس لباس الحداد، ويشق خديه بالصخر. ويتلو المراثي على (بعل) ويهيم وسط الجبال والغابة[١٧] وتحزن (عناة) بدورها حزناً شديداً. تهيم على وجهها بحثاً عن شقيقها (بعل). وفي إحدى الغابات تعثر على جثته فتدعو الإلهة شاباش (شمس) لتساعدها. ولتنقل جثته إلى جبل (صفون) وهناك تقيم وليمة حداد عظيمة، تذبح الأضاحي والقرابين تكريماً له، تجتمع الآلهة وتقترح (عشيرة) تنصيب ابنها (أشتار) رئيساً على الآلهة بدل (بعل) وتتم الموافقة. فيعتلي (أشتار) كرسي (بعل) لكنه كان صغيراً لا يصل قمة العرش وقدماه لا تصلان مسند القدمين. ويرى نفسه هكذا فيعتذر وينزل عن كرسي (بعل) ويعلن عجزه عن الحكم في مرتفعات (صفون).

أثناء ذلك تذهب (عناة) في الغابات لتفتش عن (موت) المتهم بقتل أخيها، تلتقي به حيث يعترف بجريمته. فتضربه بسيفها وتشطره نصفين. تذروه بمروحتها وتحرقه بنارها وتسحقه بمطحنتها اليدوية وتبذره في الأرض.

ويموت الإله (موت) يستبشر الإله (إيل) بعودة ابنه (بعل) حيث يرى

في منامه أن (بعلا) حيّ. فيفرح ويضحك مبتهجاً، ويرفع صوته معلناً أن (بعلاً) ما يزال حياً، ويهتف بالنبأ للعذراء (عناة) والإلهة (شاباش) لكن أحداً لا يعرف مكان (بعل) رغم افتراض وجوده.

وترتفع الصرخات (أين بعل الجبار، أين الأمير سيد الأرض). ويصيح إيل: دعوني أجلس وأستريح حتى تهدأ روحي في صدري.

لأن بعل عليان حي
لأن الأمير سيد الأرض موجود[١٨]

وترسل (شاباش) إلهة الشمس (التي ترى كل شيء لتجد (بعلا) فإذا وجدته تراه يعترك مرة أخرى مع الإله (موت). وكان (بعل) قد هاجم (موت) وألقاه أرضاً وأزاحه عن عرشه مدة سبع سنوات). ويرد في النص الأوغاريتي كلمات يتضح أنها تشير إلى ما فعلت (عناة) بالإله (موت). والكلمات على لسان الإله (موت):

بسببك يا بعل رأيت العار
بسببك رأيت البعثرة بالسيف
بسببك رأيت الاحتراق بالنار
بسببك رأيت الطحن بالرحى

وسرعان ما يشتبك (موت) و(بعل) في صراع مميت:

إنهما يشتبكان كأفراس النهر
موت قوي وبعل قوي
إنهما ينتطحان كالجواميس
إنهما يعضان كالأفاعي
إنهما يركلان كالمتسابقين
موت بأسفل وبعل بأسفل

ولم يستطع أحد التغلب على الآخر، فتتدخل (شاباش)، وتنذر (موت) بأن إيل سوف يقف إلى جانب (بعل) فيخاف الإله (موت)، ويعود (بعل) إلى عرشه ليستقر سبع سنين في النماء والخصب.

أثناء عودة (بعل) واستقراره يأخذ بمطاردة الديدان. حيث يسلط عليها الوحوش البرية فتضج الآلهة لا سيما وصيفات الإلهة (عشيرا) والإله (ياريخ) إله القمر. يذهب الجميع إلى (إيل) ليشتكوا ضد بعل وتسلطه. فيطلب منهم أن ينزلوا إلى الأرض ويختبئوا في البراري حتى يلدوا وحوشاً ذات قرون وكاسرة وذات سنامات أشبه بالجواميس، وسيراها (بعل) ويطاردها.

تفعل الوصيفات ما أمرهن به (إيل) وتنزل إلى الأرض، وتلد وحوشاً. يأخذ (بعل) بمطاردتها لكن المطاردة تتحول إلى كارثة على (بعل). إذ تنقض الوحوش عليه ويختفي سبع سنين أخرى غريقاً في مستنقع، عاجزاً عن الحركة.

ولا شك أن الأسطورة هنا نسخة أخرى عن موت (بعل) في المرحلة الأولى، وبحث (عناة) عنه. حيث يذهب أخوته مرة أخرى يبحثون عنه. ولما يجدونه يفرحون بعودته للخصب والأمطار ومرة أخرى تبحث (عناة) عن (بعل). بعد أن أخبرتها الآلهة أنه ذهب إلى الصيد. ولما تجده يقع في هواها. ثم يضاجعها في صورة بقرة ثم تصرح له بأنها ولدت له ثوراً برياً. وفي كتاب -أساطير العالم القديم. ترد قصة زواج بعل من عناة قبل موته الأول فيقول الكتاب (ولكنه قبل أن يفعل ذلك جامع عجلة حملت منه بولد على شكل عجل) ولم يره هنا أن (عناة) هي التي ضاجعته وهي على شكل بقرة.

ويبعد هذا الافتراض أن عناة تسمى العذراء في كافة نصوص أوغاريت. ذلك مرفوض إلا في حالة واحدة. وهي أن رمز الزواج يعني الإخصاب مرة أخرى أو يعني انعكاساً لتقليد الزواج بين الأخ والأخت التي كانت منتشرة عند الفراعنة.

● أسطورة كريت:

هذه الأسطورة محفوظة في ثلاثة ألواح من ألواح (أوغاريت) اثنان منها في حالة جيدة بينما الثالث ناقص. وهذا يعني أن هناك فجوات في تركيبة

الأسطورة وتناسقها. وقد توصل العالم (ديل ميدكو) وبعض محللي هذه النصوص الموجودة في الألواح إلى اتفاق عام حول الخطوط الرئيسة للأسطورة رغم بعض الاختلافات في التفاصيل.

-ويرى بعضهم أنها ذات أساس تاريخي بينما يرى آخرون أنها حكاية تعبدية ذات شخصية أسطورية. ويبرز العنصر الأسطوري بما يكفي لإدراج الحكاية في هذا العرض للميثولوجيا الكنعانية.[19]

ورغم ما يثار حول هذه الأسطورة من إشكالات فإن الاعتقاد السائد أنها تندمج في خطين واضحين للأساطير. فهي من جهة تقترب من أسطورة الطقس كما تقترب من الأسطورة التعبدية. لكنها بأسلوبها القصصي تظل أقرب إلى أسطورة الطقس لما فيها من أصل لمبنى الأسطورة.

تقول الأسطورة إن (كريت)[20] ملك (حبور)[21] كان يعاني الحزن بسبب فقدان زوجته وأولاده وقصره، وهو في هذه الحال المحزنة يتراءى له الإله الأكبر (إيل) في الحلم ويأمره بالكف عن حداده. وبالاغتسال والمسح بالزيت، وصعود البرج العالي لتقديم قربان للإله وبأمر من (إيل) يجهز كريت جيشاً أو حملة عسكرية ضد مدينة تدعى (أدوم).[22] وهي التي قرنها بعض الباحثين بمدينة (أدوم) التي تقع اليوم في منطقة (البتراء) وعندما تصل الحملة وتحاصر المدينة. يرفض جميع العروض المقدمة لرفع الحصار والانسحاب إلا إذا قبل ملك أدوم المدعو (بابيل)[23] أن يزوج ابنته (حورية) من كريت.

ثم ينفذ كريت وصايا الإله (إيل) وفي الطريق ينذر نذراً لـ(عشيرة) الآلهة الأم بإعطائها كثيراً من الذهب والفضة في حال دعمها له. ينجح (كريت) ويتزوج (حورية) ويقيم وليمة كبرى يحضر حفلها آلهة الكنعانيين كلهم، ويبارك (إيل) (كريت) بكأس من الخمرة ويعده بسبعة أبناء وابنة، ترضع (عشيرة) و(عناة) واحداً منهم لتؤهلانه لخلافة (كريت) على العرش، ينفذ (إيل) وعده لكن (كريت) يفشل في تعهده لـ(عشيرا) وتبدأ الكوارث الناتجة عن غضبها وسخطها، ويسقط كريت مريضاً ويوشك أن يموت يحزن أبناؤه لا سيما ابنه المدعو (إلحو)[24] وقد آمن هذا الابن بأن والده من نسل مقدس

وخالد، يخبر كريت ابنه بعدم إضاعة الوقت في مواساته، ويطلب منه أن يرسل في طلب شقيقته المدعوة (ثيتمانات)[٢٥] أي الثامنة إذ أنها تتصف بالشفقة والحنان. ويتفق (الحو) و(ثيتمانات) على إعداد أضحية (لإيل) كما ويهب (الحو) تقدمة من الزيت لـ(بعل). وحين يعجز الجميع يعقد (إيل) مجلس الآلهة سبع مرات للبحث بين الآلهة عمن يستطيع شفاء (كريت).

ويعلن (إيل) أنه سيلقي تميمة بنفسه تكفل زوال الوباء، ويقطع لهذه الغاية قطعة روث ثم يرسل إلهة الشفاء (شيتاقات)[٢٦] لتحلق فوق مئة مدينة وبلدة لإيجاد مخرج يشفي كريت. ويحالفها النجاح. فتعثر على الدواء، ثم ينتشر خبر إيجادها له وأنها انتصرت على الموت، ويسترد كريت عافيته وشهيته ويجلس على عرشه. في هذه الأثناء يكون ابنه الأكبر (ياصيب) قد خطط لاغتصاب العرش، حيث يدخل غرفة كريت المريض، ويخبره أنه موشك على الهبوط إلى حفرة قبره، ويطلب منه التنازل عن العرش وتسليم السلطة له شخصياً. وتنتهي الأسطورة بلعنة تنزل من (إيل) على (ياصيب).[٢٧]

● أســطورة أقهــات:

هذه الأسطورة محفوظة في ثلاثة ألواح الأول والثاني سليمان والثالث متضرر بصورة سيئة، وقد ترجمها العالم (فيرولو) وجاءت دراسة لاحقة أظهرت أن (أقهات بن دانيل)، كان بطل الأسطورة، وموضوعها هو موت (أقهات) وانبعاثه.

تقول الأسطورة: يظهر الملك (دانيل) وهو يحضر وليمة للآلهة من أجل الحصول على ابن يتدخل بعل لدى الإله (إيل) نيابة عن (دانيل) فيعد (إيل) بالولد، ويصل الخبر إلى (دانيل) ويمضي للقاء زوجته، تحمل امرأته بولد ثم تلد ويظهر (دانيل) وهو يقيم العدل للأرامل والأيتام على عتبة داره ويظهر الإله (كوثر وحاسيس) مقترباً منه وهو يحمل قوساً وسهاماً ويأمر الملك زوجته بإقامة وليمة للإله الصانع (كوثر) وخلال الوليمة يقنع دانيل كوثار

بإعطائه القوس والسهام ليضعهما على ركبتي ولده المولود المدعو أقهات ثم تظهر صورة أقهات وهو يلعب بالسهم والقوس. ويبدو أن سرعة انتقال الزمن في الأسطورة يوحي بأن أجزاء منها قد فقدت، ويبدي أقهات مهارة فائقة في استخدام القوس والسهم، مما يثير الغيرة عند الإلهة (عناة) وتطلب منه أن يعيرها القوس لتستخدمه مقابل منحها إياه ذهباً وفضة. وهنا يرفض أقهات وينصحها بتأمين قوس مماثل لها، تصر الإلهة (عناة) على طلبها، وتعد أقهات بمنحه الخلود مثل (بعل) لو رضخ وسلمها القوس. ويرفض طلبها ويسخر منها قائلاً بأنها لا تستطيع منح الخلود لإنسان كتب عليه الموت، ويضيف أقهات بقوله إن القوس هو سلاح الرجل ولا يصح استخدامه من قبل أنثى.

تغضب (عناة) وتطير إلى (إيل) وتطلب منه السماح لها بتنفيذ خططها في امتلاك القوس وتطلق تهديدات تبدو غريبة تماماً إذ توجهها إلى كبير الآلهة (إيل). ثم تذهب أثر ذلك إلى (يثبان) الذي يبدو طرازاً ثانوياً من المعبودين. له طبيعة حربية. وتقترح عليه أن يحول نفسه إلى عقاب أو نسر كي يتمكن من الطيران فوق أقهات أثناء تناوله الطعام ويفعل ما اقترحته عليه، ويحلق فوق أقهات ثم يطرحه أرضاً ويأخذ السهام والقوس منه. لكن عناة لم تكن راغبة في موت أقهات بل هي ترغب في امتلاك القوس والسهام وتركه غائباً عن الوعي مدة ما، لكن (ياثبان) النسر يقتل أقهات أثناء تنفيذ المهمة. ولكن القوس ينكسر ويضيع أو يسقط في الماء وتخيب امال (عناة) وتشعر بالاحباط فتبكي لموت (أقهات) وتعد برده إلى الحياة كي يهبها القوس والسهام من جديد.

وبموت أقهات يحل الجفاف وتخرب الغلال تماماً كما حل بـ(بعل) وبالأرض بسبب موته ثم تظهر شخصية جديدة وهي الإلهة (بوغات) شقيقة (أقهات) وترى النسور فوق عتبة الدار وعلامات الجدب على الأرض، وهي تتوسل إلى (دانيل) ليفعل شيئاً. لكن جميع إجراءات دانيل تفشل ويعم الجفاف سبع سنين.

ويصل الرسل حاملين معهم نبأ موت أقهات، فيقسم (دانيل) على الثأر. ويصلي لـ(بعل) كي يتيح له اكتشاف ذلك النسر الذي قتل أقهات وأكل

جثته . فيجلب (بعل) النسور حتى يعثر على بقايا أقحات في بطن أم النسر .

وتحاول بوغات تنفيذ خطة الثأر وتقترح استخدام (ياتبان) عميلاً لها حيث يجهل دوره في قتل (أقحات).

تجمع الجثة ثم تدفن ويدوم دفنها سبع سنتين ثم يُبعث أقحات ليعم الخير والخصب مرة أخرى.(٢٨)

● أســطورة عوج بن عناق والعماليق:

يبدو أن الأصل فيما يدور حول شخصية عوج بن عناق هو أصل حقيقي وواقعي إذ أن المصادر التاريخية تشير إلى العماليق وأماكن تواجدهم. غير أن ما أحيط بهذه الشخصية من هالة جعلها أقرب إلى الوهم الخرافي. ولا نغفل هنا عن دور العبرانيين في تضخيم هذه الشخصية أو هذه الصورة حول (العناقيين) العماليق، ولأسباب كثيرة سندرسها في الفصل الخامس. حاول العبرانيون تضخيم شخصيته وجعلها أقرب إلى الوهم منها إلى الواقع.

أما ما ورد عن العماليق في المصادر التاريخية فإنهم يرون أن العناقيين قد هاجروا من شبه الجزيرة العربية في الوقت نفسه الذي هاجر فيه الكنعانيون، وسكنوا في باديء الأمر في الأقسام الشمالية من بلاد الشام. ثم أخذوا ينتشرون في أواسط سوريا ولبنان وامتدوا جنوباً إلى فلسطين ويرجع بعضهم هجرتهم إلى فلسطين منذ الألف الرابعة ق.م.(٢٩)

وترى بعض المصادر أن العماليق شعب من أقدم سكان فلسطين وسوريا الجنوبية، وأقاموا في قادش في جنوب فلسطين. وقد اعتدى العبرانيون عليهم. وكانت أول معركة حدثت بينهم وبين الغزاة العبرانيين هي معركة (رفيديم) غرب سيناء، وكان العماليق يتجولون من مكان لآخر، ومجال تجوالهم واسع فهو يمتد من حدود مصر إلى بادية فلسطين.

أما (عناق) فهو اسم كنعاني يعني (عنق) وهو رجل يُنسب إليه العناقيون، وهو أبو (شيشاي) و(اخيمان)و(تلماي) وإليه نسبت حبرون

(الخليل) ويوصف العناقيون بالجبابرة لطول قاماتهم وشدة بأسهم في الحروب. وقد سكن بعضهم بين القدس والخليل. وقد خاف العبرانيون قاماتهم وقوتهم عندما جاؤوا غازين أرض فلسطين، وقد كان (جوليات الملك الفلسطيني منهم).(٣٠)

أما عوج فهو ملك الأموريين في (بيسان) من سلالة (الرفائيين) العمالقة، وقد امتد ملكه من وادي (أرنون) جبل (حرمون) وكان طويل القامة جباراً شديد البأس، وكان له سرير من حديد ضخم الحجم، وقد حفظه اهل ربة عمون (عمان) في متحفهم.

تنسج حول العماليق أساطير وخرافات كثيرة منها أنهم جاؤوا من نتاج حدث بين الملائكة وبنات آدم. وهذا تقديس يأتي من قبل بعض الساميين لهؤلاء الأسلاف من الجبابرة، بني (أليوهيم) أو العماليق، و(هذا يعود إلى مصدر توراتي على أغلب الظن لأنه ورد في سفر التكوين ما يشابه ذلك لا سيما عن زواج الملائكة ببنات الناس). وترى الأسطورة أن أنصافهم آلهة وأنصافهم بشر.

أما ما يدور حول عوج بن عناق فهو ما يرد ذكره في الذاكرة السمعية الشفوية العربية حيث لم يدوّن عنه إلا ما ندر.

وأعتقد أن التوراة لعبت دوراً هاماً في إضفاء الضخامة على شخصية عوج.

وتذكر المصادر الشفوية الفولكلورية أن (عوجا) ولد في بيت آدم وكانت امه مخيفة طول الاصبع من أصابعها ثلاثة أذرع وعرضه ذراعان. وينتهي بظفرين حديديين كالمنجلين أما مجلسها فمقدار وادٍ من الأرض. وتقول التوراة إنها أول من بغى في الأرض وعمل السحر لذلك أرسل الله عليها أسوداً مثل الفيلة وذئاباً كالإبل ونسوراً كالحُمر فقتلوها.

ويقال إن طول عوج بن عناق كان ثمانين ذراعاً يحتجز السحاب فيشرب منه. ويتناول الحوت من البحر فيشويه على حرارة الشمس ثم يأكله. ولما حدث طوفان نوح ارتفع الماء فوق الجبال خمسة عشر ذراعاً فقتل من على الأرض إلا (نوح) ومن معه في الفلك (وعوج بن عناق) الذي لم يتجاوز

الماء ركبتيه وكاد أن يمسك بالسفينة فيغرقها.

وتقول المصادر التوراتية وهي مشكوك في صحتها ان موسى لما سار من مصر إلى أريحا غازيا كان معه سبعون من الاسباط اختار اثني عشر نقيبا منهم حتى إذا بعثهم ووصلوا لاريحا يلتقون بـ(عوج بن عناق) فيحجزهم ثم يضعهم جميعا على رأسه كحملة حطب. وينطلق بهم إلى امرأته ويقول لها أنظري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون مقاتلتنا، وطرحهم بين يديها فتابع قائلا هل أسحقهم برجلي فقالت له زوجته لا بل خل عنهم يخبروا قومهم بما رأوا.(٣١)

وذهب النقباء يقول بعضهم لبعض (إنكم إن أخبرتم بني اسرائيل بخبر الجبارين ارتدوا عن نبي الله ولكن اكتموهم وأخبروا موسى.

وأخذ بعضهم على بعض الميثاق ليكتموه، غير أن عشرة منهم نكثوا بالعهد. وراحوا يخبرون إخوتهم وآباءهم بما رأوا حتى خاف هؤلاء وأبوا أن يقاتلوا مع موسى. ثم تقول مصادر التوراة أن موسى وعوجا إلتقيا وكان طول موسى عشرة أذرع أو ثمانية. فوثب موسى في السماء عشرة أذرع وضرب عوجا فأصابه في كعب رجله فقتله.(٣٢)

وتقول الأسطورة إن الناس اقتطعوا قطعا كبيرة من القماش حتى استطاعوا أن يصنعوا له ثوبا يغطونه. وتقول أيضا إنه إذا أراد أن يبوّل فانه كان يضع رجلا علي جبل ورجلا على جبل آخر. وكان بوله يشكل نهرا أو سيلا عظيما.

وتأتي أسطورة قابيل وهابيل شاهداً على عمق الخيال الكنعاني. فقد كان من بين مكتشفات أوغاريت أن (قابيل) قتل (هابيل) ثم هام على وجهه. وأثناء هربه وُلد لآدم ابن ثالث يدعى (شيث) الذي حل محل أخيه القاتل، وعليه فقد سُمي نسله من بعده بأبناء الله تمييزا لهم عن نسل أخيه (قابيل) الذي من نسله جاء الأشرار. والذين عرفوا بأبناء الناس ولما كان (قابيل) قد أقام منزويا في جبل حرمون (المحرّم) وهو جبل الشيخ فقد عشقت الملائكة بناته وأباحوا المعاصي والمحرمات.(٣٣)

○ المراجع :

١ - ت: ساميه أسعد، الأسطورة في الأدب الفرنسي المعاصر، عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦، سنة ١٩٨٥، ص ١٠٩.

٢ - الياد، جوانب من الأسطورة جاليمار ١٩٦٣، نقلا عن عالم الفكر، المجلد ١٦، سنة ١٩٨٥، ص ١١٠.

٣ - خلدون الشمعة: مدخل إلى مصطلح الأسطورة، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٩٧، سنة ١٩٧٨.

٤ - أحمد أبو زيد، الرمز والأسطورة والشعائر، مجلة عالم الفكر، الكويتية، المجلد ٩، عدد ٤ شباط ١٩٧٩.

٥ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٨، مرجع سبق ذكره.

٦ - تعريفات الأسطورة واردة في كتاب منعطف المخيلة البشرية، صمونيل هنري هووك، دار الحوار.

٧ - سفر التكوين، الإصحاح ٩، ٢٠، ٢٧.

٨ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤١، مرجع سبق ذكره.

٩ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٦٠، مرجع سبق ذكره.

١٠ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٦٨، مرجع سبق ذكره.

١١ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٦٨، مرجع سبق ذكره.

١٢ - صمونيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٦٥، مرجع سبق ذكره.

١٣ - النص ١٣٧، من نصوص أوغاريت الأسطر ٦-٧-٨-٩.

١٤ - صمونيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٤٧، مرجع سبق ذكره.

١٥ - صمونيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٧٠، مرجع سبق ذكره.

١٦ - صمونيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٦٥، مرجع سبق ذكره.

١٧ - النص ١٣٧، من نصوص أوغاريت الأسطر ٦-٧-٨-٩.

١٨ -

١٩ - صمونيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٧٢، مرجع سبق ذكره.

٢٠ - لم أعثر على معنى كلمة كريت.

٢١ - لم أعثر على معنى كلمة حبور، ومكان تواجدها كمدينة. غير أنها من المتوقع أن تكون قرب صيدا في جنوب لبنان.

٢٢ - أدوم: منطقة تقع مكان مدينة البتراء في الأردن. وأدم وأدوم مأخوذتان من التربة الحمراء.

٢٣ - بابيل مأخوذة من باب الله أو بوابة الله وهذا تفسير محتمل لكنه غير مؤكد.

٢٤ - لم أعثر على معنى كلمة إلحو.

٢٥ ـ ثيتمانات تعني الثامنة وهي من اللغة الكنعانية .
٢٦ ـ شيتاقات : لم أعثر على معنى هذه الكلمة .
٢٧ ـ ياسيب : لم أعثر على معنى هذه الكلمة إلا إذا كانت من يسيب بمعنى يترك .
٢٨ ـ صموئيل هنري هووك ، منعطف المخيلة البشرية ، ص ٧٦ ، مرجع سبق ذكره .
٢٩ ـ قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٣٦ ، مرجع سبق ذكره .
٣٠ ـ قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٤٢ ، مرجع سبق ذكره .
٣١ ـ قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٤٦ ، مرجع سبق ذكره .
٣٢ ـ شوقي عبد الحكيم ، الفولكلور والأساطير العربية ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ، مرجع سبق ذكره .
٣٣ ـ شوقي عبد الحكيم ، الفولكلور والأساطير العربية ، ص ٦٤ ـ ٦٦ ، مرجع سبق ذكره .

الفصل الرابع

أساطير كنعان بين التأثر والتأثير

قد يكون من المسلم به أن الكنعانيين الذين عاشوا في مناطق واسعة من الساحل الشامي ، لم يعيشوا منعزلين عن العالم القديم ، فالزمن الذي امتد بهم منذ الألف الثالثة ق . م . هو الزمن الذي عاشت فيه شعوب الحضارات القديمة كالآشوريين والبابليين والإبليين والفراعنة والحثيين وغيرهم من الشعوب الأصيلة المتأصلة في المنطقة والشعوب والجماعات الطارئة أو الغازية .

وفي مجال هذا البحث لا بد من الإشارة إلى حضارة (إيبلة) التي عايشت حضارة أوغاريت أو سبقتها بقليل . لما لذلك من أهمية على مستوى البحث .

فالعلماء والآثاريون قدروا أن هذه الحضارة وجدت منذ عام ١٧٠٠ ق .م . وتثبت الكشوف أنها ذات أهمية استراتيجية . فهي تقع على (تل مرديخ) الذي لا يبعد عن حلب كثيراً . لقد ابتدأت الكشوف منذ عام ١٩٦٤ على يد عالم إيطالي ، وفي عام ١٩٧٤ توصل العالم إلى كثير من الاكتشافات التي تفوق في أهميتها أية اكتشافات أخرى .

وجد في المدينة المتبقية خمسة عشر ألف (لوحة) وقد دونت عليها كتابات قديمة . وأثبتت الكشوف أن اللغة المستخدمة فيها تختلف عن سائر اللغات المجاورة والمعاصرة لها . وهذا يضيف رقماً جديداً للغة جديدة من

اللغات السامية للشعوب التي قطنت سوريا .

وقد خاضت هذه الحضارة حروباً عديدة ، تنتصر تارة وتنكسر أخرى حتى استطاع الآكاديون أن يدمروها ولا يبقى منها إلا المدينة الرئيسة (إيبلة) .

وقد عبد أهلها الظواهر الطبيعية وكان لهم حوالي ٥٠٠ إله كل منها يمثل جانباً من جوانب الظواهر الطبيعية كالبرق ، والرعد والعواصف .. إلخ .

غير أن الأهم من ذلك كله أن العلماء الذين يدرسون العهد القديم (التوراة) يرون أن للعبرانيين يداً في صنع هذه الحضارة ودليلهم على هذا الهراء وجود بعض المفردات في لغتهم والتي تشابه مفردات من لغة العبرانيين ومنها مثلاً كلمة (إبرو) وهي اسم لملك (إيبلة) ويشابه حسب زعمهم (إبراهيم) ومثل كلمة (يا) التي استعملها العبرانيون بكثرة .

وعلى ضوء المكتشفات فإن العلماء المختصين رأوا أن حضارة إيبلة وجدت قبل وجود العبرانيين أنفسهم بزمن طويل ، لقد كان العبرانيون أنفسهم قبائل رحلاً ليس لهم لغة مشتركة بل يتكلمون عدة لغات وهذا راجع حسب المنطق العلمي لتأثرهم بأصحاب الحضارات . وهذا أيضاً دليل على ضعفهم وحتى على عدم وجود أي روابط بين قبائلهم . ثم أن التوراة لم تكتب إلا قبل الميلاد بحوالي ٥٠٠ عام والفرق الزمني بين كتابتها وبين وجود (إيبلة) حوالي ١٢٠٠ عام وهذا دليل على أن المفردات العبرية خليط متنوع ومأخوذ عن سكان المنطقة من كنعانيين وغيرهم .

لقد أسقط في يد العلماء الصهاينة لأنهم شعروا بالحرج أمام العالم لا سيما أنهم فشلوا في إثبات حضارة لهم . وقد أدى تزوير بعضهم للحقائق لطردهم من الجامعات العالمية وعدم تصديقهم في جميع المجالات الأثرية .

إن ما أوردناه من سطور حول حضارة (إيبلة) له صلة قوية بحديثنا عن الأساطير الكنعانية طالما أن الفترة الزمنية التي عاشها الكنعانيون والإيبليون هي فترة واحدة تقريباً . وطالما أن سرقة العبرانيين تطال كل حضارات الشرق العربي القديم .

واعتماداً على ما اكتشف في (تل العمارنة) في مصر وما اكتشف في

أوغاريت ، والكشوفات في أرض فلسطين يثبت أن علاقات واسعة كانت قد قامت بين الشعوب العربية في المنطقة ، وقد أثر كل شعب بالآخر تأثيراً بالغاً ومهماً . مما يجعل الباحث متيقناً من عملية التأثر والتأثير التي هي أساس التشابه بين أشياء كثيرة كانت تتأثر بها تلك الشعوب .

وتكون فلسطين والساحل الشامي حتى شمال اللاذقية منطقة تتوسط العالم القديم ، وتقع على أرض تعتبر ممراً من وإلى المتوسط فشماله وغربه . فقد تعرضت لعملية التأثر والتأثير أكثر من أي منطقة في الشرق العربي القديم .

ويأتي هذا التبادل الحضاري والثقافي نتيجة عاملين مهمين :

١ - الحروب والغزوات التي لم تنقطع والتي تعرضت لها بلاد كنعان .

٢ - التبادل التجاري والتجارة بين الكنعانيين وغيرهم من الشعوب لا سيما عن طريق البحر الأبيض المتوسط . وحسب كافة المكتشفات والمقولات الأثرية (الآركيولوجية) فإن حدود كنعان تبدأ شمالاً من مدخل (حماة) وبادية سوريا إلى الشرق وبادية العرب إلى الجنوب وساحل المتوسط إلى الغرب . وبهذه الحدود كانت تضم الساحل الشامي كله ، تبدأ شمالاً على البحر عند جزيرة (أرواد) وتضم (بيروت) و(صيدا) و(جبل الكرمل) و(يافا) و(غزة) أما في العمق فتضم بلاد كنعان فلسطين ولبنان وقسماً من الأردن ودمشق وحماة وبصرى وإلى الغرب والجنوب تقع مصر الفراعنة وإلى الشرق تقع بابل والبابليون والآشوريون ، ويسكن في الوسط أقوام عربية سامية كالآراميين والحثيين .

ونتيجة لخصوبة الأرض الساحلية وأهميتها التجارية ومواقعها الهامة . فقد تعرضت لغزوات من قبل الفراعنة تارة ، ومن قبل الآشوريين والبابليين تارة أخرى ، وتمتد نزعات السيطرة عليها إلى اليونان في زمن الاسكندر وإلى الرومان من بعد ، ولعل أشد النزعات سطواً كانت غزوات اليهود البدو العبرانيين التي استمرت حوالي القرنين من الزمن . وشكلت حالة استعمار استيطاني منذ الغزوة الأولى التي قادها (يوشع بن نون) الذي أخذ باغتصاب واقتطاع أجزاء من أرض كنعان ، وتركزت هذه الغزوة الشرهة

على فلسطين لما لها من أهمية في المجال الجغرافي والتجاري والمناخي.

ومن هنا كان لا بد من العودة إلى أثر هذه الغزوات على أرض كنعان في المجال الثقافي والأسطوري على كل حال فإن هذا الاختصار لا يعني أنه لا وجود للأثر التخريبي أو التدميري أو الاقتصادي إنما هو مجال بحثنا طالما أن هناك دارسين تاريخيين يدركون تلك الأمور إدراكاً هو من اختصاصهم ومجالات بحوثهم.

● التأثير في الديانة الكنعانية وأساطير كنعان:

يؤكد الباحثون على أن الشعوب التي هاجرت من جنوب شبه الجزيرة العربية هي شعوب عربية. وأن تسميتها عربية هي أقرب إلى المنطق العلمي من تسميتها شعوباً سامية وأول من أطلق اسم سامية هو العالم النمساوي (شلوتسر) عام ١٧٨١ وأصبحت منذ ذلك الحين علماً لهذه الشعوب التي خرج منها الآشوريون والبابليون والكنعانيون وغيرهم.

ويقول الدكتور (جواد علي) في كتابه (تاريخ العرب قبل الاسلام) إذا أردنا أن يكون كلامنا علمياً أو قريباً من العلم وجب علينا إهمال كلمة الشعوب السامية وإبدالها بكلمة الشعوب العربية لأن هذه التسمية ملموسة لمفهوم بينما تلك اصطلاح مبهم.(١)

وقد أطلق الفرس والرومان واليونان اسم العرب على سكان شبه الجزيرة العربية منذ الألف الأولى ق.م. ولهذا كله ولأسباب أخرى مشابهة نرى أن التأثير الذي حصل في الديانة الكنعانية وأساطيرها هو تأثير محلي وليس تأثيراً عالمياً بمعنى أن تأثير البابليين العرب وكذلك الآشوريين لم يكن تأثيراً أجنبياً. ولذلك فإن الكنعانيين سرعان ما تقبلوا التأثير وتبنوا كثيراً من أجزاء التفكير البابلي والآشوري وضمنوه تفكيرهم وأساطيرهم.

ونرى أن هذا التأثير وهذا التأثر كان يحصل في عملية نمو واحدة ليصل إلى مستوى متكامل في بناء الأسطورة والديانة لدى كافة الشعوب العربية القديمة. وإن الحديث عن الأسطورة لا يكون صحيحاً إذا كان ينصب في

منحى مغلق إقليمي. وأرى أن على الباحثين العرب الانطلاق من مبدأ المفاهيم المشتركة التي خلقت أساطير مشتركة أيضاً.

ولعل الاختلافات الجزئية لا تشكل أساساً لدراسة كل أسطورة بمعزل عن الأسطورة الأخرى. ولعل هذا التداخل بين أساطير الشعوب العربية القديمة تدعمه حيثيات كثيرة:

١. هجرة جميع هذه الشعوب من منطقة واحدة رغم الاختلاف الزمني لهجرة كل شعب.
٢. ارتباط التفكير والأسطورة بالمواقع الجغرافية والمناخية كوجود الأنهار والبحار والخصب والقحط وما شابه ذلك.
٣. التعرض للغزو الخارجي المتشابه في كافة الحالات.
٤. بقاء هذه الشعوب في أماكن تواجدها وتواجد حضاراتها رغم الغزو والدمار والقتل.

وعندما يتفق الباحثون على أن اللغة الكنعانية الفينيقية هي أقدم لغة مكتوبة في العالم فإنهم لا يغفلون عن حالة التأثر والتأثير الحاصلة بسبب انتقال اللغة بحروفها من مكان لآخر. فاختراع الحروف الأبجدية من أعظم ما اكتشفه الإنسان، وقد انتقلت هذه الحروف إلى اللاتينية وصارت تعرف في اليونان باسمها العربي الألفبات (Alphabat). ويرى بعض الباحثين أن هذه اللغة أخذت أصولها عن الهيروغليفية المصرية، غير أن البحوث والكشوفات والاكتشافات الأثرية التي عثر عليها في جزيرة سيناء في موقع يسمى (سرابيط الخادم) والذي يعود تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ ق.م. ترى أن اللغة المكتوبة هي باللهجة الكنعانية القديمة. وتعد حلقة وصل بين الهيروغليفية التصويرية والأبجدية الفينيقية.(٢)

وقد وجدت نماذج من الكتابة نفسها في مدن كنعانية كثيرة لا سيما في (جازر) و (شكيم) و (لخيش) وقد امتد تأثير هذه اللغة إلى مساحات واسعة من البلاد العربية حتى طغت على غيرها من اللهجات ولذلك جاء التأثير سريعاً. وساعد في انتشار الأساطير انتشاراً واسعاً وواضحاً.

ومن غير المشكوك فيه أن حضارة بلاد الرافدين وحضارة وادي النيل

سبقتا الحضارة الكنعانية مما أثر في ديانة الكنعانيين وأساطيرهم على الرغم من أن الحضارة الكنعانية احتفظت إلى حد كبير بطابعها البدوي العربي -رغم انتقالها إلى الطابع الزراعي في فلسطين ومن ثم بالتقاليد القديمة السائدة في شبه جزيرة العرب آنذاك.

● الحدث الأسطوري والتأثير:

في مجمل الأحداث الأسطورية التي نراها في حضارة العرب القديمة نجد بعض القواسم المشتركة، فمن الأحداث الصغيرة إلى الأحداث الكبيرة تؤثر بعض جزئيات الأسطورة البابلية في بناء جزئيات الأسطورة الكنعانية. كما أن بعض الطقوس المصرية اقتبسها الكنعانيون وضمنوها تقاليدهم الدينية وطقوسهم.

ففي الأسطورة البابلية نرى الإله (مردوخ) (مردك) كبطل إلهي أسطوري يغزو (تيامت) أو (تعامت) التي تمثل قوى الشر والدمار فيقتلها. ونرى بداية الخلق تتكون على شكل محيط المياه الحلوة والذي يمثله الإله -(إبسو) ومحيط المياه المالحة الذي تمثله (تيامت). ويشترط (مردوخ) إن هو تصدى لـ(تيامت) أن تكون له مكانة مثل مكانة بقية الآلهة، وكان صراعه يتوجب حمل السلاح المكون من القوس والسهم والبرق، وينتصر على (تيامت) ويشطر قلبها نصفين، ثم يتفرغ لإنشاء الكون واستقراره.(٣)

هذا الحدث يتجلى واضحاً في أسطورة الخلق والإله -بعل-. فبعل هو بطل إلهي أسطوري يغزو (لوثان) التنين ذا الرؤوس السبعة.

في البداية يمكث الإله الأكبر -إيل- فوق المياه في بداية قصة الخلق، ثم يكلف ابنه (بعل) بمواصلة حدث الخلق، وأول ما يفعل يتصدى لقوى الشر والعماء المتمثلة بالتنين (لوثان). وبالطبع فإن تتمة الأسطورة تقول إن (بعل) ينتصر على إله البحار والأنهار (يم نهار) وبعد ذلك يطلب أن يساوى ببقية الآلهة حيث يُبنى له معبد أسوة ببقية معابد الآلهة، ومن ثم ينصب رئيساً على الآلهة.

وفي هذا الحدث الأسطوري نرى التشابه في الأمور التالية:

١ـ (بعل) يتشابه مع (مردوخ).

٢ـ (لوثان) يشابه (تيامت).

٣ـ السلاح هو السهم والقوس والبرق.

٤ـ (بعل) قتل (لوثان) و(تيامت) يتفرغ كل من (مردوخ) و(بعل) لتتمة بناء الكون.

٥ـ كل من (مردوخ) و(بعل) يطلب أن يتساوى بالآلهة بعد القضاء على قوى الشر.

٦ـ (تيامت) والمياه المالحة تتشابه بـ(يم نهار) ومياه البحر التي تستطيع أن تدمر.

٧ـ تشييد معبد (ايزا جيلا) لـ(مردوخ) يتشابه مع تشييد معبد للإله (بعل).

وفي الإطار الثاني نرى الحدث الأسطوري الثاني وهو تدمير البشرية:

وفي هذا الحدث الأسطوري نرى أن مجمع الآلهة -عند المصريين- يجتمع ويطلب الإله (رع) من الآلهة النصح ليواجه البشر ومؤامراتهم عليه لأنه هرم وشاخ. وبعد الاتفاق مع الآلهة يبعث (رع) عينه متمثلة بالإلهة (حاتور) لتواجه البشر، فتأخذ بإقامة المذبحة وتخوض في دماء البشرية.

وفي الأسطورة الكنعانية نرى تآمر (موت) والعالم السفلي على (بعل) ثم قيام (عناة) بدعوة أعداء (بعل) لوليمة وصنع مذبحة تسيل فيها الدماء حتى تخوض فيها عناة حتى ركبتيها والتشابه يأتي من خلال الأمور التالية:

١ـ (رع) يشابه (بعل).

٢ـ (حاتور) تشابه (عناة) حيث أن الأولى يخلقها (رع) وهي بمثابة ابنته، وعناة يخلقها (إيل) وهي شقيقة (بعل) الواقفة إلى صفه حتى النهاية.

ونرى أيضا الحدث الأسطوري الذي يُعنى بموت تموز وانبعاثه، فهذا الحدث يشابه أيضا موت (آدونيس) الإله الفينيقي الكنعاني وانبعاثه.

في الأسطورة البابلية تنزل (عشتار) إلى العالم السفلي لتنقذ (تموز) وتعود به إلى الأرض وفي الحدث الأسطوري الكنعاني تذهب .(عناة) لتفتش عن (بعل) في عالم الأموات. وبعودة (تموز) وعودة (بعل) تعود الخصوبة للأرض.

وإذا عدنا إلى المؤثرات الجزئية فإننا نجد الكثير منها متداخلا في الأساطير الكنعانية، ويؤثر في تركيبها تأثيرا واضحا.

وفي أساطير الخلق يستمد (سنخونيتن) الفينيقي الكنعاني فكرة قصة الخليقة أو البيضة الخالقة من الأساطير المصرية. وقد وردت قصة الخليقة كما سبق.

وفي أسطورة خلق الإنسان من صلصال لدى الكنعانيين نجد التأثر واضحاً بأسطورة بلاد الرافدين وفي حدث اعتيادي وأسطوري في الوقت نفسه. إذ أن صنع الإنسان من صلصال يتجلى في عملية سحرية يتولى خلالها بعض الآلهة بالتشاور فيما بينهم باستخدام الصلصال لتصميم نموذج للإنسان كي يقوم بخدمة الآلهة.

ونرى أيضاً أن فكرة خلق الإنسان كعمل يقوم به صانع فخار إلهي، موجودة في الأسطورة المصرية، حيث يظهر الإله (خنوم) وهو يشكل أول رجل، وأول امرأة على دولاب فخار[٤] لكن الأسطورة الكنعانية تعود بأصولها إلى بلاد الرافدين، حسب رأي صمونيل هووك.[٥] وتتردد أسماء الهة الكنعانيين في الأساطير البابلية والدمشقية. إضافة لذلك نجد الحدث الأسطوري الذي يرتبط بأحد أفراد الآلهة. يبقى هو نفسه مع تغيير في الاسم أو بالهيئة والصفات. نرى مثلا الإلهة (عشتار) في مجمع الآلهة البابلي هي (عشتاروت) لدى الكنعانيين وأن شقيقتها المعروفة بـ(ريه) هي نفسها الإلهة (سميرنا) أو (ديونا) أو (بعلتي) وأن بعل بحدثه الأسطوري هو (مردوخ) في الأسطورة البابلية وأن (تموز) هو (بعل) أحياناً وأحياناً أخرى (أدونيس).

وأسطورتا (تموز) و(أدونيس) تتشابهان لحد الاتفاق حيث أن كليهما وُلد من أمه التي سحرت نفسها إلى شجرة المر. ومن جزعها ولد. وعشقته

(أفروديت) وخبأته من أختها إلهة العوالم السفلى عند الآسيويين عامة (بروسربين أو برسيفون) أو (اللات) عند عرب الجاهلية الأولى. ويتصارع الأختان، ويحتدم صراعهما إلى أن يصل إلى مسامع كبير الآلهة. وهناك يقضي على (أدونيس) أو (تموز) بأن يعيش نصف العام على وجه الأرض، ونصفه الآخر تحتها. ونرى أن الثور الذي يرمز إلى إيل في الأسطورة الكنعانية يتردد صداه في الأسطورة البابلية بشكل واضح.

● أساطير كنعان وتأثيرها في أساطير الشعوب الاخرى:

في هذا الإطار تبرز لنا أهمية تأثير الميثولوجيا الكنعانية في الأساطير الاغريقية اليونانية وفيما دونته التوراة من أحداث خلق الكون وأجزاء ميثولوجية أخرى.

وقبل التعرض لدراسة التأثيرات في ما دونته التوراة، لا بد من الإشارة إلى تأثيرات خاصة تتوضح وتتكشف في الميثولوجيا اليونانية.

وفي هذه الإشارة نجد مصدرين من مصادر الحديث عن التأثير:

١ - مصدر قديم وهو المؤرخ الكنعاني الفينيقي (فيلو الجبيلي).

٢ - مصادر البحوث الحديثة التي اعتمدت على المكتشفات والمقارنة والتحليل.

أما (فيلو الجبيلي) فهو مؤرخ كنعاني فينيقي يبدو أنه عاش بمدينة جبيل على الساحل اللبناني الشامي، ويرى بعضهم أن شخصيته أسطورية مثل (هوميروس) ويقال إنه استعار تاريخه وأساطيره وأعماله النثرية من كاتب كنعاني سابق عليه بنحو أربع مائة عام يدعى (سنخونتين) بل إن (فيلو الجبيلي) نفسه قال عن (سنخونتين) إنه كان أول من دون التاريخ البعيد عن الخرافة وإنه قد وفق في العثور على الكتابات السرية المنقوشة على الأساطين والرقى والتي تخبأ وتحفظ في أخفى أماكن الهياكل السرية.[٦]

وقد كرس (فيلو الجبيلي) حياته لإثبات أن التراث الأسطوري ـ اليوناني والروماني مستمد في معظمه من سابقه الفينيقي الكنعاني. الذي شاركت

في إبداعه والطواف به ونشره تلك الشعوب البحرية من فلسطينيين وسوريين ولبنانيين. وقد أوقف هذا المؤرخ حياته لإثبات ذلك حيث يقول:

«إن اليونان الذين يفضلون سواهم في التمدن، والتحضر انتحلوا جميع الأخبار والحكايات الكنعانية، ورغبة منهم في أن يخلبوا الألباب بمحاسن الحكايات الخرافية أضافوا عليها بكثرة لا حد لها كل ما أسعفتهم به مخيلتهم، ومنهم الشاعر (هسيود) وبقية الشعراء الجوالين الذين ملأوا العوالم بخوارقهم وحكاياتهم، فهم الذين أخذوا عن الفينيقيين الكنعانيين علومهم ومعارفهم من الآلهة وحروب الجبابرة وغير ذلك.»[٧]

ويمكن القول: إن صلة الكنعانيين بالاغريق صلة قديمة، فقد كانت الأساطيل التجارية الكنعانية تجوب البحار. ويؤكد أكثر الباحثين أن صلات الكنعانيين الأولى كانت مع الشعوب اليونانية، وقد أثروا في بناء بعض مدنهم وتعلمهم كثيراً من العلوم، والفنون حتى أن اللغة الكنعانية الفينيقية أصبحت اللغة الأساسية التي اعتمدها اليونان في كتاباتهم وإذا تعرضنا للتأثير الكنعاني في الديانة اليونانية وأساطير اليونان فأول ما يطالعنا في هذا المجال المتشابهات من أسماء الآلهة.

فنرى أن (إيل) الذي يعني القوة والقدرة يصبح عند اليونان (إيليوس) والآلهة (عشتار) تصبح الآلهة (ديونا) ورغم تغير الاسم، فإن الحدث الأسطوري الذي هو من اختصاص (عشتار) ينتقل إلى (ديونا) عند اليونان دون تغيير يذكر. وفي مقام آخر نرى أن (إيل) يصبح عند اليونان (كرونس) الإله. وكما ورد فإن (إيل) يملك أربع عيون عينين إلى الأمام وعينين إلى الخلف. و(كرونس) الإله اليوناني أصبح يحمل هذه الصفة التي تمتع بها (إيل) ونرى أن أساطير (بعل) و(أدونيس) و(تموز) و(دانيال) تصبح أساطير الإله الروماني (جوبيتر). أما في الأحداث الأسطورية فيرد في النصوص الأسطورية اليونانية (أن زيوس سبح في هيئة ثور من (صور) إلى جزيرة (كريت) وهو يحمل ابنة ملك صور الكنعانية على ظهره. وهناك صارت الإلهة (أوروبا) وولدت له (فينوس).

كما وتقع زوجة الملك .(باسيفاي) في حب ثور جميل وتلد وحش

(مينوتور) الذي نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.[٨]

وعلى الغالب فإن صلة اليونان القوية بالساحل الشامي جعلتهم يستمدون من الكنعانيين الكثير من جزئيات الديانة والأسطورة، فالثور في أسطورة (بعل) هو رمز للإله (بعل) نفسه، الذي يضاجع عناة وهي على شكل بقرة فتلد له ثوراً برياً، فيفرح فرحاً شديداً.

فحتى لو كان هذا الحدث يخلط بين التصور الحقيقي والتصور الأسطوري والزيادة الخارجية فإن قيمته تأتي من خلال الأجزاء الأسطورية التي تتركب منها الأحداث الأسطورية نفسها. ونجد أيضاً أن قصة البطل الذي يقتل الوحش بمساعدة بنت الملك حيث يظفر بها عروساً له تأتي عند الكنعانيين حين يقتل (بعل) التنين بمساعدة (عناة) بنت كبير الآلهة (إيل) وكان اليونان يعاصرون ويراسلون الملوك الحثيين، كما كانت سفنهم تتجر مع (أوغاريت) على الساحل الشامي الكنعاني منذ ١٦٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.

وإذا أدركنا أن تاريخ كتابة الأسطورة عند (هوميروس) هو القرن الثامن ق.م. أدركنا وعرفنا أن الكنعانيين كتبوا أساطيرهم عن حوادث قديمة هي على الأقل أقدم من أساطير اليونان بـ ٦٠٠ عام. وأن الميثولوجيا اليونانية قد تأثرت بالأساطير الكنعانية وأخذت عنها، وإذا استعرضنا وقائع حياة الآلهة وصفاتهم سنجد التشابه واضحاً إلى حد كبير حتى في جزئيات قد يعتبرها بعضهم ليست هامة بالنظر للمتشابهات في الأحداث الكبيرة.

تعيش الآلهة اليونانية على الشكل التالي: زيوس وأخوته وأخواته وأبناؤه يعيشون في جبل (اولمبس) أعلى قمة في جبال اليونان، يأكلون ويشربون. ويلعب الإله (أبولو) على القيثارة. ثم يضطجع الإله (زيوس) مع زوجته. وكان لبقية الآلهة مساكنهم الخاصة التي أنشأها الإله الصانع (هفايستوس).

على أن الحياة عند الآلهة بمقارنتها بحياة الناس إنما تبدو جافة تافهة فهم غيورون مشاكسون.[٩]

وفي الأسطورة الكنعانية نجد الإله (إيل) وزوجته (عشيرة) وأبناءه

وبناته السبعين يعيشون في قمة الجبل عند مغيب الشمس، والإله الصانع (كوثر وحاسيس) يجلس جاهزاً ليعمر المعابد والبيوت الإلهية الأخرى. كما أن للإله (إيل) وزوجته بيتاً فإن لجميع الآلهة بيوتاً خاصة بها، وقد قام بعل بطلب إنشاء بيته أسوة ببقية الآلهة. وتبدو حياة الآلهة جافة قاسية. فـ(بعل) يعصي أباه و(يم نهار) يغار منه لأنه تمرد وأصبح رئيساً للآلهة و(موت) يغار منه ويشاكسه. وتحدث بينهما حروب طاحنة فانية.

وهذه الجزئيات التي نستطيع العثور عليها ومقارنتها تؤيد وجهة النظر القائلة بأن اليونان استمدوا أساطيرهم من سابقيهم الكنعانيين الفينيقيين وبنوا عليها من خيالهم حتى أصبحت تعرف فيما بعد بالملاحم الأسطورية.

وحين نتعرض للتعرف على مهمات الآلهة نجد التشابه واضحا أيضاً. ففي الأسطورة اليونانية نجد الأرباب الثلاثة يتقاسمون العالم (زيوس) و(هادس) و(بوسيدون) (زيوس) يأخذ السماء و(بوسيدون) يأخذ البحار و(هادس) يأخذ العالم السفلي.

وفي الأسطورة الكنعانية نرى (يم نهار) يأخذ البحار والأنهار و(موت) يأخذ العالم السفلي و(بعل) يأخذ السماء حيث يمتطي الغيوم. (وهذا التقسيم اليوناني هو نفسه التقسيم الكنعاني، وهذا يدل على وصول الأسطورة الإلهية الشرقية إلى اليونان في وقت مبكر).(١٠)

وحين نحاول مقارنة الأحداث الأسطورية نجدها تتردد في كلا النمطين الكنعاني واليوناني. في الأسطورة الكنعانية نجد أن إله السماء يقتل أولاده أو يذبحهم. نراه يتوجس الغدر من ابنه (شديد) فيذبحه. وكذلك يفعل بأخته ثم ينجو منه ابنه الإله (إيل) حيث يشب وينتقم من أبيه الذي ظلم أمه الأرض.

وفي الأسطورة اليونانية يخشى (كرونس) أن يسقطه أحد أبنائه عن عرشه فيبتلعهم واحداً إثر واحد إثر الولادة مباشرة. أما (زيوس) آخر ولد فقد استبدلته أمه بحجر يبتلعه (كرونس) الأب وبذلك ينجو زيوس. ثم يجبر أباه على الاعتراف برئاسته ولفظ إخوته من جوفه.(١١)

على أن هناك تشابهاً واضحاً قد لا يلتفت إليه الكثيرون وهو أن عدد أفراد الآلهة أو ما نسميه مجمع الآلهة يتكون عند اليونان من بضع وعشرين إلها وإلهة وهذا العدد يتقارب جداً مع عدد أفراد مجمع الآلهة الكنعاني الذي يبلغ بضعا وعشرين إلهاً وإلهة.

وإذا عرفنا أن عدداً من هذه الآلهة اختصت بها سوريا الداخلية فيصبح العدد متساويا أو متطابقا إلى حد كبير.

فمجمع الآلهة الكنعاني يضم كلا من -إيل. عشيرة. عشتار. كوثار وحاسيس. يم نهار. موت. بوصيدون. مولك. أدونيس. داجون. عناة. جويان. أوجار. بعل. شاباس (الشمس) يرخ. نيكال. رحمايا. حاريبي. بدراي. ثيتمانات. شيتاقات.

ويضم مجمع الآلهة اليونانية -كرونس. زيوس. هيرا. بوسيدون. هاديس. ديمتر. كوري. آثينا -مفايستس. هرمس. أبولو. أرتميس. ديونيسيون. أفروديت. إيروس. اريس. أياس أو أجاكس. هيروكليس أو هيراكليس. باخيليوس أو أخايليوس. وهذه الآلهة هي آلهة اليونان الكبرى. ويضاف لها آلهات أخرى أقل شأنا كما هو الحال في المجمع الإلهي الكنعاني. فلدينا مثلا في الميثولوجيا الكنعانية (أرساي) آلهة الأرض. و(تللاي) آلهة الندى. إضافة لـ(سميرنا) وأتثار بن عشيرة. وتيرا ابنة الملك كريت.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإله بوصيدون اليوناني هو نفسه الإله بوصيدون الكنعاني الذي نقل حرفياً مع لفظ الصاد سينا. وهو إله البحار في كلتا الأسطورتين. وبوصيدون هو ابن كنعان وهو باني مدينة صيدا وأول من جعل البحار مطية له، وأول من طوّف فيها هو وبعض أبنائه من الآلهة. ولعل بوصيدون يشير إلى حرفية اشتقاق صيدا منه أو اشتقاقه هو منها وصيدا مدينة كنعانية هامة على ساحل الشام المتوسط.

من هذا الإيجاز يستطيع المرء أن يرى العينات الواضحة لتأثير الأسطورة الكنعانية في الأسطورة اليونانية الاغريقية وقد يستطيع المرء اللجوء إلى (الإلياذة) و(الأوديسة) ليرى الأساطير الاغريقية التي تتكىء في كثير من

نواحيها على الأسطورة الكنعانية والاقتباس منها.

● الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي:

تكمن في هذا الباب إحدى أهم المسائل التراثية المتعلقة بفلسطين والمشرق العربي ومصر. وهذه الأهمية تكمن من خلال كون التوراة اليهودية أول كتاب دونت فيه أحداث تاريخية قديمة وتعاليم دينية متفرقة، ولما كانت الكشوف الأثرية لم تقف على رجليها بعد فإن التوراة ككتاب أعتبر المصدر الوحيد لكافة الباحثين والمستشرقين في دراسة التاريخ المختص بالمنطقة وبحضارة تلك الشعوب التي عاشت فيها.

وبعد الجهود التي تواصلت من قبل الأثاريين وبعد النشاطات الدائبة في البحث العلمي والدقيق راحت تتهاوى المزاعم الصهيونية التوراتية أمام حقائق بصّرت العالم بحقيقة التاريخ وشعوب المنطقة.

لقد بذل علماء التاريخ ودارسو الآثار جهودهم في تحليل مسار الحياة القديمة واستخلصوا النتائج وثبتوا عن طريق التحليل العلمي الدقيق والواقعي أن اليهود لا يعدو كونهم غزاة يحتلون الأرض ويغتصبون كل ما لدى الشعوب من تراث وحضارة.

ولسنا هنا بصدد إعادة ما درسه المؤرخون الدارسون والأثريون إنما لتكون على بينة من الأمر لا بد لنا من دراسة الجوانب الهامة المتعلقة بالديانة اليهودية وسطوها على ديانة الكنعانيين والبابليين والمصريين وأساطيرهم.

ما هو التوراة؟ هذا السؤال البدهي في طرحه لا بد أن يأخذ طريقه للطرح طالما أن المسألة تتعلق بالمدونات التي سرقت من الكنعانيين وغيرهم.

يؤكد الباحثون أن التوراة (أي الكتاب الديني الأساسي لليهود) والذي هو بين أيدينا في الوقت الحالي ليس إلا مدونات كتبها اليهود أيام السبي البابلي. وقد تابعها أحبارهم، ووسعوا فيها فأخرجوا بعض الشروحات التي

أطلقوا عليها (التلمود).

وإذا سلمنا دينيا أن (موسى) النبي قد نزل الوحي الالهي عليه ولقنه صحفه المعروفة بصحف موسى فإن التاريخ يقول: إن التوراة أخذت تظهر ككتاب مدوّن بعد وفاة النبي موسى بـ ٧٠٠ عام وبعد وفاة النبي إبراهيم بـ ١٣٠٠ عام. وهذا ما جعل الباحث (لودس) يقول في كتابه اسرائيل ص ٣٥٩ إننا لا نستطيع أن نؤيد صحة رجوع تاريخ أي قسم من الأسفار الخمسة الأولى وحتى الوصايا العشر إلى عصر موسى، لأن ما ورد في روايات هذه الأسفار قد تعرض أكثر من بقية أسفار التوراة إلى تكرار إعادة التصنيف وإلى تفسير وتوسيع مستمرين على مر العصور.[١٢]

وما ورد في التوراة من مزامير وأمثال وأشعار وشرائع وما إلى ذلك من أساطير وقصص فهو مستقى من المصادر الأدبية القديمة لمختلف الثقافات التي اطلع عليها كتبة التوراة. ومن المعتقدات والتقاليد الاجتماعية التي عاشوها، ومارسوها فعلاً في مناطق الاحتلال، وهي كنعانية أو بابلية الأصل.

وما يهمنا من إيراد هذه الملاحظات هو أن التوراة الذي بين أيدينا ليس إلا كتابا صنعه أحبار اليهود بعد أن هضموا تراث الشعوب العربية الممتدة من فلسطين إلى بلاد الرافدين، ورغم هذا وذاك فإنه أصبح من المسلم به أن هذا الكتاب (التوراة) ليس كتاباً واحداً، وليس هو الوحيد المعتمد فهناك:

١- التوراة الهيروغليفية: ترى مصادر التاريخ أن التوراة التي نزلت على موسى قد نزلت باللغة المصرية الهيروغليفية بسبب كون موسى خرج من مصر ولا يعرف سوى لغة المصريين. وقد توفي موسى قبل أن تظهر اللغة العبرية كلغة.

وما في التوراة هذه وثيق الصلة بالعقيدة المصرية التي بشر بها أخناتون.

٢- التوراة السبعينية أو اليونانية: وقد كتبها اثنان وسبعون كاهناً

يهوديا، وقد ترجموها إلى اليونانية في جزيرة (فاروس) عند مدخل الاسكندرية عام ٢٥٠ ق.م. وذلك تلبية لرغبة (بطليموس فلادلفوس ٢٨٠-٢٤٧ ق.م. ثم ترجمت هذه التوراة إلى اللاتينية في القرن الاول بعد المسيح. ومن ثم ترجمت إلى الحبشية عام ٣٢٠ للميلاد.

٣- التوراة السامرية: نسبة إلى (السامرة) قرب (نابلس) وقد كتبت هذه التوراة بعد إنقسام دولة الغزو اليهودي بعد (سليمان) وقد عرفت فيما بعد بالتوراة (الآرامية) بسبب كتابتها أثناء السبي البابلي. ومضمون هذه (التوراة) غير مضمون (التوراة) التي نسبت إلى (موسى). وقد سموها (توراة) الكهنة.

٤- الأسفار المحظورة: وهي أسفار ورسائل محظورة تعرف باسم (كتوبيم أخرونيم) أي الكتابات المتأخرة وقد جاءت مخطوطة في الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية وقد أطلق بعض اليهود عليها اسم الأسفار الخفية (الأبوكريفا).

إضافة لهذه الأنواع من التوراة فهناك كتابان مقدسان لدى اليهود وهما التلمود المقدسي والتلمود الحجازي وبشكل مجمل فإن التلمود وضعه أحبار اليهود ويقسم إلى قسمين (مشنا) وجمارا، و(المشنا) معناه المتن أو النص و(الجمارا) يعني التفسير والشرح.

ويرى المرء أن اختلافاً كبيراً يقع بين محتويات كل توراة وأحداثها وهذا عائد إلى زمن التدوين، ونوعية المؤلفين، ويتفق الباحثون وعلى رأسهم صموئيل هووك. أن تدوين التوراة تم من قبل نوعين من الكتبة والمؤلفين ١- تدوين كهني. ٢- وتدوين إيلوهي. وما جاء فيهما يثبت تعرض الأساطير السومرية القديمة والأساطير الخام لعملية تحريف تحريرية نتيجة استيطان شعوب عربية سامية منطقة بلاد الرافدين. وإذا تأملنا التحريف وإعادة الصياغة التي تعرضت لها هذه الأساطير على يد الكاتب العبري الكهني فلسوف نكتشف حدوث تغيير جذري. إن معالجة هذا الكاتب اليهودي محكومة بمفهوم غائب كليا عن رؤية هؤلاء الذين أنشأوا أو نقلوا الأساطير القديمة[١٣]

● **ما المقصود باغتصاب التراث؟ ما هي غاية اليهود في ذلك؟** لقد وجد فقهاء اليهود أيام السبي البابلي أن للبابليين والكنعانيين ثقافة وأساطير، أرادوا أن يجاروها. ولما لم يكونوا في يوم من الأيام «أصحاب تراث اختلسوا كل الأساطير وموروثات (كنعان) و(بابل) ولما جاؤوا إلى فلسطين غازين أخذوا يتبنون آلهة الكنعانيين، وأساطيرهم وفي هذا نقف أمام مسألة مهمة لا بد من طرحها.

فمن المعروف أن حضارات العالم تقوم على الثبات في المكان ولا يمكن لأي فئة أو جماعة أو شعب أو قبيلة أن تضع مفاهيما وأفكاراً خاصة بها دون الاستقرار. واليهود لم يعرفوا على مدى التاريخ نوعاً من الاستقرار عدا فترة وجيزة أيام احتلالهم لفلسطين. وقد أثبت علماء الآثار والتاريخ أن هؤلاء اليهود عبارة عن بدو رحّل لهم طبيعة البداوة الخشنة، حتى أن دياناتهم ظلت تتقلب من شكل لآخر، بسبب تبنيهم ديانات الشعوب الأخرى التي احتلوا أرضها ولم يحتلوا عقولها أو أنهم عاشوا بين ظهرانيها مشكلين بعض العائلات المتنقلة والتي لا تعرف سوى الخيام البدوية التي تعيش وتحيا على جوانب القرى والمدن والمراعي والمياه.

ويرى الأستاذ (كامل زهيري) نقيب الصحفيين المصريين. أن اليهود قوم تكمن مأساتهم في أنهم يمتلكون تاريخاً دون جغرافيا (وطن أو قطعة أرض. فهم كجنس تراجيدي غريب واصل تطوافه المتصل الدائم من مجتمع لآخر، ومن قارة لأخرى على طول تاريخهم القديم والحديث مما أكسبهم لتراث ومعتقدات تلك الشعوب التي عاشروها واتصلوا بها منذ نزولهم لفلسطين واتصالاتهم وتعاملهم مع الكنعانيين والأموريين وامتصاصهم الدائم لتراث هذه الأقوام وغيرها.[١٤]

إن التوراة أو التراث العبري المزعوم هو تراث مسروق، ولهذا السبب ترفض الدراسات العالمية الموضوعية أن تعترف أو تقر بوجود هذا التراث إلا ضمن تراث الكنعانيين والبابليين والفراعنة. وحتى أن العالم صموئيل نوح كرايمر لم يعترف بشيء اسمه التوراة أو الميثولوجيا التوراتية. وذلك ضمن كتاب (أساطير العالم القديم) الذي ضمنه مقالات دراسية لكبار كتاب

الميثولوجيا في العالم.

● الديانة اليهودية وخليط الأصل:

إلى فترة ليست بعيدة ظل كثير من الباحثين يعتقد أن اليهودية أصل الديانات، وما جاء على لسان النبي عيسى وما جاء في القرآن الكريم من توضيح عن علاقات الشعوب ببعضها البعض يدل بشكل أو بآخر على أن الديانة اليهودية ليست أصل الديانات ولا حتى التوحيدية منها.

وعندما استقرت حركة الكشوف الأثرية والدراسات التاريخية تبين أن ما وصل إلينا من التوراة لا يعدو كونه نسخة أخرى من ديانة (كنعان) و (بابل) والأقوام العربية الأخرى.

وحين يزعم اليهود بصلتهم بـ(ابراهيم الخليل) فانهم يوردون ضمن الأسفار الأولى شيئا عن هجرته من (أور الكلدانية) على أنه جدهم العبري الأول تاريخيا ودينيا. وحقيقة ما وصلنا عن ديانة (إبراهيم) تنفي أي علاقة له باليهود.

لقد بدأت ديانة إبراهيم منذ عصر حمورابي حيث تجلت بذور الفكرة التوحيدية في عبادة الإله (شمس)، فالأكاديون أطلقوا على (شمس) (شمش) والعرب أطلقوا عليه (شمس) والكنعانيون أطلقوا عليه (شاباش) والآشوريون أطلقوا عليه اسم (شمسو). فالملاحظ أن عبادة شمس عمت جميع المشرق العربي ثم انتقلت إلى الإله (مردوخ) الاله الوطني لسكان (بابل) حيث اعتنقها حمورابي الذي ربما عاصر ابراهيم.

وعندما هاجر إبراهيم إلى أرض كنعان (أرض غربته) وجد الكنعانيين يعبدون الإله (إيل) وقد إلتقى إبراهيم بـ(ملكي صادق) كاهن (أورسالم) وتقبل منه البركة وهذا ما أكدته التوراة نفسها حين وصفت (ملكي صادق) بأنه صادق عبد الإله الواحد. وقد ارتضى إبراهيم منه البركة أي بركة الإله (إيل).

وقد جاء في القرآن الكريم ما يثبت ويبين أن إبراهيم عبد الإله الواحد

وليس له علاقة بالتوراة أو اليهود. ففي سورة آل عمران ترد الآية الكريمة بقولها: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة إلا من بعده أفلا تعقلون)... وتتابع الآيات (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين امنوا والله ولي المؤمنين). وهذا يدل على أن الديانة الإبراهيمية هي التوحيدية أي عبادة الإله الواحد. وهو لم يخص اليهود كما يدعون إنما خص الذين امنوا بما امن. وتسلسل تاريخ اليهود يؤكد أنهم لم يتبعوه ولم يتبعوا دينه التوحيدي؟ بل تنقلوا من دين لآخر وذلك مجاراة لمصالحهم وأهدافهم. أما بالنسبة للنبي (موسى) فيرى الباحثون ومنهم جيسموند فرويد، وويل ديورات وتوينبي على أنه كان توحيديا أي أنه، يعبد الإله الواحد الذي بشر به (أخناتون) فرعون مصر وعند بدء الغزة اليهودية داخل سيناء ارتد أتباع موسى (تأثروا فوراً بالديانة الكنعانية ومن المعروف أن (إيل) هو الإله الأكبر عند الكنعانيين. ولديهم أكثر من عشرين الها والهة أقل شأنا من إيل ولكل مدينة إله تفضله على غيره.. وعند غياب موسى وعودته وجد أتباعه يعبدون العجل ويرقصون حوله. وبعد موسى وفي عهد القضاة عبد اليهود (البعليم) وتركوا عبادة الرب. وعبدوا الإله (بعل) والآلهة (عشتار) بل أنهم وحسب ما تقول التوراة زنوا وراء الهة أخرى وسجدوا لها، وفي زمن عجلون ملك (مواب) عبدوا الأوثان ثم عبدوا الهة (ارام) والهة (صيدون) و(مواب) والهة بني (عمون) والهة الفلسطينيين.[٥]

وتقول التوراة إن (يربعام) الأول أول ملك للغزاة بعد الإنقسام عام ٩٣١-٩٠٩ ق.م. أقام عجلين ذهبيين، ووضع واحداً في (بيت إيل) قرب القدس وجعل الآخر في (دان) شمال فلسطين، وراح يذبح للعجلين. وكانت السامرة وهي قرية قرب نابلس مركزاً لعبادة الأصنام، ففي عهد (آخاب بن عمري) سابع ملوك الغزاة اليهود أقام معبداً لـ(بعل) وعبده.

وقد ورد في القرآن الكريم في سورة الصافات ما يؤكد صحة عبادة اليهود لـ(بعل) إله الكنعانيين الذين سبقوهم بمئات السنين في تواجدهم في فلسطين (وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلا

وتذرون أحسن الخالقين)[٦]

وقد حدث صراع حضاري ديني بين الكنعانيين أنفسهم حول عبادة (إيل) و (بعل) وقد عبد اليهود في البداية (إيل) والواضح أن بعض أنبياء اليهود ومصلحيهم كانوا راضين عن عبادة (إيل) الكنعاني طالما أن له صفات الوحدانية. ولكنهم عندما انقلب اليهود لعبادة (بعل) ضجوا وقاموا ضد هذه العبادة.

وفي القرن الرابع عشر ق.م. تمخض الفكر الكنعاني عن انطلاقة حضارية راقية كان الفكر الديني يسجلها بعنف في ذلك العصر. فالهيكل الإلهي كان يضم على نحو الإله (إيل، والإلهة عشيرة والإلهة عناة) وذلك بشكل رئيس. ومن نحو آخر يضم (الإله بعل الإلهة عشتار وجيش الأبالسة). كانت المجموعة الأولى تعنى بأمرين رئيسين ١- الفكرة التوحيدية ويمثل (إيل) والفكرة العائلية الاجتماعية وتمثلها (عناة) الملقبة بالخطابة. أما (بعل) و (عشتار) فقد مثلا الإباحية بين الجنسين، كما مثل بعل القسوة والغضب بحيث لقب بإله الجحيم. بالإضافة للقبه إله الخصب ما دام مسيطراً على الرياح والأمطار.[٣]

وفي كلتا الحالتين فقد عبد اليهود كلاً من (إيل) و (بعل) وهما إلهان كنعانيان، لكن انقلابهم إلى عبادة (بعل) يعني بالضرورة رفضهم لأخلاق (إيل) و (عناة) وحبهم للإباحية البعلية، أما بالنسبة (لالياس) فهو (إيليا) حسب رأي قصة الكتاب المقدس، وقد عاش (إلياس) في المنطقة الشمالية الشرقية من فلسطين وفي زمنه ساقت (إيزابيل) زوجها والغزاة اليهود إلى عبادة (بعل). و (إيزابيل) هي كنعانية وهي ابنة ملك صيدا (أثيعل) وتزوجت من (آخاب بن عمري) ملك مملكة اسرائيل أي المملكة الشمالية. وقد جعلته ومن معه يعبدون البعل. وحينما عبد اليهود الثور فإنهم بذلك تأثروا بعبادة الثور الذي هو رمز الإله (إيل) وبالثور عند عرب الرافدين وبالبقرة عند الفراعنة.

وفي عصور إتصال اليهود بالبابليين والآشوريين والفرس منذ الألف الأولى ق.م. أخذوا أكثر معتقداتهم عن السحر والحيوانات الخرافية

السحرية التي تتبدى في رؤى (دانيال) ومراثي (إرميا) و (حزقيال) وقد أخذوا عن الفرس كل تصوراتهم ومعتقداتهم عن الجن والشياطين بمعالمها وأسمائها الفارسية والمجوسية إلى جانب الثنائية الفارسية في الخير والشر أو المتضادات والتي تميز بها هذا التراث الفارسي الآري المجوسي وسط حضارات العالم القديم عامة والتراث السامي بشكل خاص.

وحين نتعرض لنصوص التوراة نجد النقل واضحاً من النصوص الكنعانية ومن فكر الكنعانيين وثقافتهم هؤلاء الذين تعرضوا للغزو اليهودي واغتصاب التراث الخاص بهم.

ففي النص الأصلي المرموز له بـ(٧٨B) من لوحات أوغاريت يرد لقب الإله (إيل) المحتجب وفي سفر (أشعيا) ٤٥/١٥ يأتي النص القائل (حقاً أنت المحتجب يا إله اسرائيل المخلص) وفي النص نفسه يرد عن (بعل) إنه يتلذذ بأرزاء البشرية إنه يحب القتال والعقاب فهو الذي يأمر الأعاصير. وفي سفر (أشعيا) ٢٩/٤ يرد (من قبل الرب رب الجنود تفتقد برعد وزلزلة صوت عظيم، بزوبعة وعاصف ولهيب نار آكلة) وفي المزامير ١٠٥-٣٢ يرد (جعل أمطارهم برداً وناراً ملتهبة في أرضهم). وقد عرف أن الإله (بعل) لا يتورع من إيذاء البشرية أو بعض الناس بيديه. وحتى في مصارعتهم. وعندما يتعب يتخلى عن عمله (للكروبيم) أي القوى السماوية المعاونة له. ويرد معنى ذلك في سفر (أشعيا) ١٣/٣ (أنا أوصيت مقدسي ودعوت أبطالي لأجل غضبي ومفتخري عظمتي).

وهذه بعض الأمثلة على سرقة كاتبي التوراة من الأساطير الكنعانية.

ولكن السرقة الأكثر أهمية هي سرقة المادة الأسطورية وأحداثها وشخصياتها.

لقد اغتصبت المادة الأسطورية كي تقوم عندهم على أساس ديني خيالي. وأول ما يطالعنا في ذلك أسطورة الخلق. فمن المعروف والواضح أن أسطورة الخلق عند اليهود تتكشف بشكل واضح في أسفار التكوين لا سيما في الإصحاح الأول ٢/١٤ والإصحاح الثاني ٤ب/٢٥.

وأول ما يطالعنا قصة صراع إله اليهود (يهوه) مع الحياة حيث يتصارع

مع التنين المسمى (ليوثان) ويقضي عليه ثم يأخذ بخلق العالم والليل والنهار ويركز نظام الفصول ويسوق المطر ويفجر الينابيع، ونرى أن اسم ليوثان يتردد في فقرات أخرى من التوراة.

ولو حاولنا المقارنة لوجدنا أولاً: أن الاسطورة البابلية تحوي قصة صراع الإله (مردوخ) مع التنين تنين العماء المسمى (تيامت) ثم قتله والانتقال لتسيير الكون وخلق الكواكب وجر المياه. ونرى أيضاً أن الاسطورة الكنعانية تحوي قصة صراع (بعل) مع التنين (لوثان) ذي الرؤوس السبعة وقتله ثم التفاته لتكوين العالم ويسوق الأمطار ويوزع الفصول (ويمكن القول إن الشاعر العبري لم يكن غريباً عن الشكل الكنعاني من الاسطورة).[١٨]

والمدقق في العرض (اليهوي) لحالة الكون في التوراة يرى أن (يهوه) عمل الارض والسموات وكل شجر البرية لم يكن في الارض بعد. وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الارض.

وقد وجدنا هذا المضمون في أسطورة بلاد الرافدين (الخلق البابلية) ثم إن المقارنة تؤدي إلى الكشف عن العلاقة بين الارض والمياه، فبلاد الرافدين، ووادي النيل تعتمد أراضيها على مياه الأنهار الموجودة بكثرة. ولذلك لم تكن الاسطورة الرافدية أو المصرية تحفل كثيرا بمياه الأمطار طالما أن الانهار هي المصدر الأساسي للزراعة. بينما نرى الكنعانيين في فلسطين اعتمدوا على مياه الأمطار في زراعاتهم، حتى أنهم أطلقوا على الإله (بعل) ممتطي الغيوم والذي يسوق السحاب للأرض (وهكذا فالخلفية هنا ليست من بلاد الرافدين أو مصر بل هي فلسطينية وتمثل الفكرة الكنعانية المبكرة حول كيفية ولادة الحياة والزراعة للمرة الاولى في كنعان.[١٩]

وفي قصة صنع الإله للإنسان من تراب (صلصال) تتبدى لنا الأسطورة التوراتية وقد اعتمدت كليا على ما جاء في قصة الخلق عند الكنعانيين الذين بدورهم اقتبسوها من البابليين كما أشرنا سابقاً (فيهوه) يعجن

الحيوان والطير ليرى إن كانت ستقدم العون للإنسان ثم ينتزع من (آدم) ضلعا ليخلق (حواء) التي تعني الحياة ومن التربة التي يخلق بها الإنسان يخلق الاشجار ويجعلها تنمو وكذلك بقية المخلوقات.

ومن الثابت بعد هذه الاغتصابات التوراتية أن اليهود لا يمتلكون تراثا. ودورهم يكمن في أنهم دونوا تراث الكنعانيين والسومريين والبابليين وغيرهم ولذلك فإن التوراة بما تحويها من تعاليم دينية وميثولوجية ليست ملكاً لليهود بل هي ملك لتلك الشعوب العربية التي سبقت العبرانيين في التحضر والتمدن والتواجد في الارض.

وكثيرا ما نسمع عن رفض الدارسين والباحثين للتراث العبري المنسوب لهم، وهم لا يعتبرون هذا التراث متميزاً. وفي جملته هو تراث الكنعانيين وغيرهم من الشعوب في المنطقة وقد أدت الدراسات الاستشراقية إلى الكشف في حقيقة التوراة. فمنهم يرون أنها خليط من ثقافات غير متجانسة (وليس بغريب أن تراث العبرانيين هو على وجه التقريب تراث أولئك السومريين اللا ساميين وصل اليهود عن طريق الوساطة الكنعانية مثلهم في هذا مثل بقية الاقوام والجماعات السامية.[٢٠]

وعن الكنعانيين الذين سبقوا العبرانيين في استيطان الارض والاستقرار فيها جاء إلى الوجود تراث السومريين متنقلا عبرهم إلى العبرانيين.

ولا شك أن المادة التي استفاد منها الكنعانيون لم تبق على حالها بل زيد عليها او أنها زينت وتمددت. واخترعت أحداثا وشخصيات جديدة تتناسب وطبيعة الكنعانيين، ومعتقداتهم الميثولوجية التي عاشوا حياتهم الدينية من خلالها.

وهذا ما يدعمه موقع الكنعانيين جغرافيا. فهم ينقلون من العمق الشامي ويرسلون إلى ما وراء البحر بمعنى أنهم لعبوا دور الوسيط في نقل تراث الشعوب ومن ثم تصنيع هذا التراث ودمجه في تراثهم حتى يصبح متكامل الوجوه والملامح والعناصر.

وعلى ضوء كثير من الدراسات يجد المرء أن أسفار التكوين التوراتية بمجملها تنتمي إلى الميثولوجيا الكنعانية، المتوارثة مباشرة عن الحثيين

والبابليين العرب.

وأفكار هذه الأسفار تدور حول خلق العالم وتوحد الخالق بالماء وإقدامه على خلق الوجود عن طريق رسله الثلاثة ثم فكرة خلق الإنسان الأول، وصراع الخالق مع قوى الشر. وجميعها مستمدة من الكنعانيين الذين تأثروا بحضارة العرب فيما بين النهرين ودمجوا تراث المنطقة بتراثهم الذي اغتصبه اليهود وانتحله كتاب التوراة.

● المستشرقون ودورهم التخريبي في اغتصاب تراث فلسطين ونسبته إلى اليهود:

من المسلم به أن اراء كثير من المستشرقين الباحثين في التراث العربي في فلسطين ترتبط بآراء الحركة الصهيونية. فمنذ أن برزت حركة الاستشراق المهتمة بالديار المقدسة (فلسطين) دفعت الصهيونية بأفكارها وتعاليمها على مائدة البحوث. واستطاعت أن تجد المرتع الخصب لأفكارها التي تلتقي مع اراء الفلسفات الاستعمارية الاستشراقية التعصبية.

وقد استخدمت الصهيونية أساليب شتى في عملية التزوير والتشويه، فعمدت إلى غسل الأدمغة واندفعت تتغلغل في خبايا العقول الأوروبية وتدخل ثناياها، فتساهم في خلق تصوراتها واتجاهاتها. وذلك كما يتغلغل السرطان في الدم. تارة بجعل العقول عمياء لا تبصر الحقائق وتارة بدفعها للدفاع عن تاريخ مزعوم، وتراث متوهم وثالثة برميها في مستنقعات التعصب الأعمى المغطى ببعوض الحقد الاستعماري اللاسع. ودود العلق الذي لا يشبع مهما امتص من دماء.

وما يثير التحفز لمثل هذا الكلام هو المطب الذي يقع فيه باحثو التراثيات وباحثو الأساطير العرب الذين راحوا يدرسون تراث فلسطين القديم والأساطير في أرضها. وغيرها من الأساطير التي وجدت في مكتشفات العراق ومصر وغيرها من المناطق العربية معتمدين على نتف كلامية استشراقية، واراء غربية بدأها علماء الغرب. وهي تمتلئ بالسم

والزيف وقلب الحقائق إلى باطل.

إن البحث الاستشراقي الذي يتناول أساطير الكنعانيين في فلسطين والساحل الشامي برمته يضع الخطوط العامة والتفصيلية، ومن خلالها يبحث، وعلى ضوء أفكاره المنحازة يدرس.

وإذا تساءلنا عن غايات حركة الاستشراق المهتمة بأساطير الشرق القديم وجدنا خليطاً من الإجابات والتصورات التي لا شك في صحتها.

وما وصلنا من كتبهم وآرائهم يقوم على أساس واحد يقول: إن البحث في تراث فلسطين والأساطير القديمة المتعلقة بها يقوم من أجل تدعيم وجهة نظر التوراة، وبالتالي من أجل تدعيم وجهة النظر القائلة، إن فلسطين حق مشروع لأصحاب هذه التوراة.

ومن هنا يمكن أن ندرس وجهة النظر هذه والتي هي إحدى مشاكل هذه البحوث. ومن هنا أيضا يمكن أن نضع تصوراتنا حول تراث فلسطين والمنطقة العربية.

أما المناهج المتبعة في دراسة التراثيات والأساطير حسب رأي المستشرقين فهي:

١ - الاعتماد على دراسة النصوص الأثرية الكنعانية وغيرها ليقولوا إن ما جاء فيها قد ورد في التوراة. وإن التوراة هو الأصل التدويني، والنصوص الكنعانية وكشوفاتها هي فروع وتابعة.

٢ - الاعتماد على دراسة مكتشفات اثار بابل و(إيبلا)وأوغاريت ليقال إننا مع رأي التوراة القائل بأن اليهود يساهمون منذ أقدم العصور في صنع وبناء حضارة الشرق القديم أي المنطقة التي يحددها حاخامات اليهود ومنظرو الحركة الصهيونية لتكون دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل. وليقولوا بالتالي: إن اليهود يلعبون الدور الأهم في بناء حضارة المنطقة وتثقيف شعوبها والحفاظ على مدوناتها.

ومن خلال ذلك تظهر غاية حركة الاستشراق المنحازة. هي غاية واحدة قائلة: إن التوراة هو الأقدم. وهو أقدم كتاب دون التاريخ الديني للمنطقة.

وهو المرجع الاساسي لمعرفة كل ما يتعلق بالماضي العريق للمنطقة . وإن اليهود هم أقدم المتحضرين ، والمؤثرين في مجرى أحداث الشرق العربي . وما عداهم فإنهم شعوب متخلفة متوحشة ، تحتاج لعبقرية اليهود وخيالهم الديني والعلمي وغير ذلك .

ولما كان اليهود يمدون أخطبوطهم إلى كل مكان وإلى كل عقل ، فإنهم استطاعوا التأثير على المستشرقين المسيحيين الذين أصبحوا بلا أدنى شك يؤمنون بأن التوراة هو أساس الديانة المسيحية ، وهو المصدر الوحيد لتدوين التراث والديانة والحياة الاجتماعية في العالم القديم والمعاصر .

إن الكنائس البروتستانتية في أمريكا والعالم الغربي تدافع عن وجهة نظر التوراتيين دفاعاً مستميتاً ، وترى أنه لا يمكن الإيمان بمسيحية المسيح ودينه دون الإيمان بالتوراة وأنبياء اسرائيل .

ومن خلال ذلك يبدو الخطر واضحاً : أحادية في الرؤية ، قدرة في التأثير ، ومتابعة مستمرة لدراسة تراث فلسطين . ومن جانب واحد أيضاً . وحسب رأي واحد ، هو رأي الجانب الصهيوني والاستشراقي الذي ينضم إليه . وأمام ذلك كله فهو يحور ويزور ويزيّف حسب هواه .

وعندما راحت أفكار المستشرقين تشد رحالها لهذه الغايات أسست الجمعيات ، وأشرف عليها الملوك والنبلاء والزعماء . وأخذت تبث أنفاسها هنا وهناك .

١ - في عام ١٨٦٥ أسست جمعية اكتشاف فلسطين في لندن . وكان الغرض منها البحث وفق منهج محدد في آثار فلسطين ، وذلك من أجل إيضاح ما ورد في التوراة حسب زعمهم .

٢ - قام العالم البريطاني (نلسون جلوك) بالبحث في تاريخ فلسطين ، وتوصل إلى نتيجة قائلة : (كلما ذهبت مستكشفاً في وادي الأردن أو وادي عربة أو أي جزء من شرق الأردن كنت استعمل التوراة كدليل للآثار . وأثق ثقة مطلقة بمعلوماتها وشواهدها) .(٣١)

٣ - ومن أهم المستشرقين الذين قاموا برحلات ، ودراسات تراثية وأثرية في فلسطين وكانت غايتهم تثبيت ما جاء في التوراة الفرنسي (لويس

فيليسيان دي مونيه) ١٨٠٧ - ١٨٨٠ وقد استخدم لدعم نظرته أسلوباً ينم عن تحيّز واضح للغايات التوراتية ، لا سيما في كتابه (رحلة إلى البحر الميت والأراضي المقدسة عام ١٨٥٠) .

٤ - ومثله أيضاً العالم (أرنست رينان) الذي كتب تصوراته في كتابه (بعثة في فينيقية) وكذلك الأب (ماري جوزيف دوجيران) ومثله العالم (تشارلز دي مورين) وقد دون هذا الأخير في كتاب له يقول فيه : (إن آباءنا الصليبيين تركوا على هذه الأرض ذكرى بطولاتهم وآثار دمائهم التي أراقوها في سبيل تحرير الشعوب المسيحية . وها نحن نقتفي اليوم أثرهم) .

ومن هؤلاء أيضاً الكونت (دوباري) ١٨٣٨ - ١٨٩٤ . و(البارون لودفيك دوفو) . وهذا غيض من فيض من أسماء المستشرقين الأثريين والتراثيين ودارسي الميثولوجيا الذين تبنوا الأعاية الصهيونية ، والتعصب الديني ليدعموا مقولات الحق المقدس للتوراة ويرفعوا قيمتها فوق كل القيم .

إن المسيحيين العرب يرفضون التوراة كما وردت أو كما وصلت إلينا ، وهذا الرفض هو إدراك لخطورة هذا الكتاب (لا سيما القسم الذي يدعو للذبح وقهر الشعوب) الذي لم يكتف اليهود بتحويل تراث الشعوب إليه ، بل أضافوا عليه تعاليم القتل والفتك بالناس والأرض .

إن هذا الدمج دعوة بروتستانتية أمريكية قام بها أتباع (مارتن لوثر) من الذين سموا أنفسهم بالمصلحين الإصلاحيين . الذين شددوا أكثر من غيرهم أو من اليهود أنفسهم في التمسك بتراث التوراة المزعوم . وما تزال آثار تشددهم باقية إلى الآن وأكبر دليل على ذلك مجلس الشيوخ ومجلس النواب في واشنطن . فالأمريكي البروتستانتي يدافع عن التوراة وعن حق الكيان الصهيوني المزعوم أكثر مما يدافع عنه اليهودي نفسه ولهذا نستطيع القول : ان الصهيونية غير اليهودية أشد نكاية ، وأشد حقداً على الشعب العربي . وعلى حركات التحرر العالمية أينما وجدت وكيفهما حاربت .

وعلى ذلك (فإن حركة البروتستانت أصبحت ترى أن العهد القديم (التوراة) لم يعد أكثر الآثار الأدبية شيوعاً بين عامة البروتستانت فحسب ،

بل إنه أصبح مصدر المعلومات التاريخية العامة. وكانت هذه هي الفترة التي بدأت فيها عملية التزوير التاريخي وقد وجد التزوير الصهيوني الحالي للتاريخ الذي يدعي حقا (تاريخيا) في فلسطين مادته المسيحية في التمسك بحرفية الكتاب. وأخذ التاريخ الشامل في فلسطين يقلص بشكل تدريجي إلى أن اقتصر على القصص المتعلقة بوجود اليهود وحده. وأصبح الاوروبيون مهيئين للاعتقاد بأنه لم يكن هناك في فلسطين الا الاساطير والقصص التاريخية والخرافات الواردة في العهد القديم، التي لم تعد تؤخذ على حقيقتها بل اعتُبرت تاريخاً صحيحا).

○ المراجع :

١ - فولتير، حياته. آثاره، أندريه كريسون، منشورات عويدات، ١٩٨٤، ص ٥٠.
٢ - فولتير، حياته. آثاره، أندريه كريسون، منشورات عويدات، ١٩٨٤، ص ٥١.
٣ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٦٢، مرجع سبق ذكره.
٤ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٢٦، مرجع سبق ذكره.
٥ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٥٣٦، مرجع سبق ذكره.
٦ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٥٣٦، مرجع سبق ذكره.
٧ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٥٣٦، مرجع سبق ذكره.
٨ - صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ٢٠٣، مرجع سبق ذكره.
٩ - صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ٢٣٣، مرجع سبق ذكره.
١٠ - صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، مقتبس من ص ٢٣٤-٢٣٥.
١١ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ص ١٥٩، مرجع سبق ذكره.
١٢ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٩٨، مرجع سبق ذكره.
١٣ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٧١، مرجع سبق ذكره.
١٤ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٧٠، مرجع سبق ذكره.
١٥ - قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٤٤-٩٤٥، مرجع سبق ذكره.
١٦ - القرآن الكريم، سورة الصافات، الآية ١٢٤-١٢٥-١٢٦.
١٧ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٩٠، مرجع سبق ذكره.
١٨ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٩٣، مرجع سبق ذكره.
١٩ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ص ٩٣، مرجع سبق ذكره.
٢٠ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، ص ٧١، مرجع سبق ذكره.
٢١ - ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة، ١٩٨٧.

الفصل الخامس

الأسطورة والرمز

«الرمز والدلالة في الأسطورة الكنعانية»

تعتبر دراسة الرمز في الأسطورة من أدق الموضوعات التي يتعرض لها البحث، وبسبب هذه الدقة، بل هذه الصعوبة في دراسة الرموز في الاساطير، فقد انقسم الباحثون وانقسمت الاتجاهات، وبرزت المدارس المتخصصة، وتباينت وجهات نظرها بحسب تباين أيديولوجية كل مفكر وكل اتجاه وكل مدرسة.

(فماكس مولر) ومدرسته يؤولان الأساطير على أساس من الخصائص اللغوية، وبوجه خاص بالإشارة إلى جنس الكلمات المستخدمة في الأسطورة، ما إذا كانت مذكرة أو مؤنثة. وترى بعض المدارس أن الأساطير هي تمثيل ورموز لمظاهر الطبيعة. ويرى آخرون ضرورة تفسير الأساطير ضمن إطار البناء الاجتماعي والثقافي السائد في المجتمع الذي تنتمي هذه الأساطير إليه.

وعلى ذلك فإنهم يرون أن الأسطورة حالة ذهنية أو عقلية مكملة للفكر العلمي، من حيث أنها تنبع من الرغبة في الايمان الذي يساعد الإنسان على مواجهة الأزمات الكبرى التي يتعرض لها الجنس البشري كله كالموت والمجاعة والزلازل والفيضان المدمر.[1]

وإذا أردنا أن نفهم الرمزية في الأساطير فعلينا أن ندرك المفتاح الذي يطلقون عليه حيوية الطبيعة. ويعني هذا الاصطلاح (الانيميزم Animism) وتعتبر الانيميزم مفتاح فهم الرمزية في الأساطير. وفي ضوئها يمكن دراسة العلاقات الرمزية التي تتضمنها الشعائر والطقوس الدينية والسحرية على السواء.

وهذا يعني أن مظاهر الطبيعة كالأمطار والقحط والخصب والفيضان، وما شابهها تؤدي إلى نقل الحدث الطبيعي إلى الفكر البشري الذي بدوره يربط العلاقات والتفاعلات بخياله وذاكرته ووهمه. فيصنع من خلالها الهته، ورموزها التي ترتبط بتلك التفاعلات الطبيعية. فالمطر والرعد والبرق تتمثل بالخصب. ولذلك يصنع الإنسان الهة الخصب، ويرمز لها برموز مادية أو ذهنية، يحتفظ بها لتكون له عوناً على اختصار الفهم الواسع لعلاقة الآلهة بالإنسان.

ومن ذلك أيضاً أن الطقوس، والمعتقدات الطقسية والشعائرية تتضمن رموزاً خاصة قد تبدو من خلال تقديم القرابين، وقد تبدو من خلال الكلام أو الحركة الجسدية المعبرة عن الرفض أو الطاعة للآلهة.

وحين يجد الإنسان إلهته فإن الفكرة الأساسية من وراء ذلك التجسيد، هي إيجاد الفكرة أو الأفكار الغامضة بشكل مجسم مجسّد. وهي تعبير عن تخيله بأن هناك كائنات عليا تملأ الكون. وهذه الآلهة المشخصة أو المجسدة، هي نوع من العون المادي الذي يساعد الإنسان على إضفاء شكل من أشكال الوجود والذاتية على هذه الأفكار.

وفي مجمل الدراسات التي تناولت الأساطير خلط العلماء الانثروبولوجيون بين المعتقدات والشعائر، وبعض النواحي التاريخية. مما جعل دراسة الأساطير نفسها تخضع لمعايير يراها المرء متناقضة أحياناً.

وقد تبدو للباحث على أنها نمط من المعتقدات التي يصعب تصور حدوثها. ومع ذلك فكل أشكال الأساطير تتمتع بدرجات متفاوتة في الصدق.(٢)

ولهذا السبب يجد المرء أن تناقضات كثيرة تكتنف الأسطورة الواحدة. فالأسطورة تتضمن أفعالاً متناقضة، ويصعب التمييز بين ما هو منطقي منها وما هو خرافي وهمي. وحتى الشخصيات الهامة التي تلعب في أحداث الأسطورة دوراً هاماً يراها المرء تناقض نفسها بنفسها. فـ(بعل) مثلاً نراه إله الخصب والأمطار تارة، وتارة أخرى نراه إله الحرب، ورئيس الشياطين والمدمر القاسي. فالمتناقض والذي يبتعد عن المنطق كما يتراءى لنا هو تناقض صفات الخير وصفات الشر.

غير أن هذا التناقض يجعل الباحث أقرب إلى تصور إمكان حدوث ذلك في الأسطورة مهما يبدو غريباً في نظر الباحث.(٣)

لقد اختلف الباحثون في تفسير الأساطير، فلذلك سنعثر على تباين واختلاف في التفاسير من حيث نشأتها واتساعها، وتأثيرها ومن حيث رموزها. «ومن الصعب أن نزعم وجود أو إمكان وجود تفسير رمزي واحد لأي أسطورة من الأساطير. بحيث يعتبر هذا التفسير هو الصحيح بالضرورة، وهذا معناه بالتالي صعوبة الوصول إلى إقامة علم للأساطير بالمعنى الدقيق لكلمة (علم) نستطيع أن نرد فيه كل الأساطير إلى نموذج واحد».(٤)

خلق العالم ورمزية المركز:

كما تبيَّن معنا سابقاً فإن خلق العالم لدى الكنعانيين يأخذ حيزاً مهماً في الأسطورة الكنعانية. وحدث الخلق بذاته يزخر بالرمز الذي ينطوي على حس ميتافيزيقي، وآخر واقعي، وكما الحال لدى كافة الشعوب التي تمتعت بالفكر الأسطوري. فإن الكنعانيين جعلوا من اعتقادات الخلق ومفاهيمه نقطة هامة يتوقف عندها الفكر طويلاً لما لها من دور انعكاسي على السلوك الإنساني الكنعاني، والطقوس والشعائر الكنعانية.

في البداية نرى أن عملية الخلق حسب التصور الكنعاني لا تتم بمعزل عن وجود صراع بين الخالق وقوى الشر. وقد تمثلت قوى الشر في الأسطورة الكنعانية بالتنين (لوثان) الذي قتله (بعل) ابن الإله الأكبر

(إيل). بعد عملية الصراع أقيم معبد لـ(بعل) أسوة ببقية الآلهة. وهذا المعبد الذي يعتبره الكنعاني رمزاً لإله الخصب والأمطار، يشكل في حدثه وإنشائه رمزاً مهماً قد نطلق عليه المركز أو المحور الكوني وكما وُجد بيت أو معبد للإله (إيل) فإن الصفات التي نعت بها تحمل من الرمزية صفة المحور والمركز الذي هو بنظر الكنعاني مساحة تواجد عرش الإله.

أن المعبد يحمل صفة التقديس، والتعظيم، وهو مليء بأسرار الآلهة، من سر الخلق والتكوين إلى سر الاستمرارية الحياتية لوجود البشر والكون والأرض.

ومن جانب آخر فإن وجود إيل بمعبده عند مغيب الشمس، وعند مصب الانهار يرمز إلى طبيعة التدفق الوجودي، الانهار التي لا تنقطع عن العطاء، عطاء الحياة ذات الصفة الخلقية التي تساعد أساساً على بقاء النوع البشري، صحيح أن هذا المركز بعيد، وهو عند مصب الأنهار وعند مغيب الشمس، والوصول إليه من الأمور الصعبة، أو المستحيلة. لكنه في الوقت نفسه لا يأخذ صفة البعد إلا ليكون مقدساً مهماً في حياة الكنعاني. كل مركز في الوجود يصعب الوصول إليه إلا بعد مشقة وبعد مراحل يبدأ أولها بالحرب التي يجب أن تدور في النفس البشرية الحرب بين الصفاء والاخلاص، وبين الانتكاس مع قوى الشر والفوضى التي تتمثل بالسلوك السيء والاعتداء، وكره الناس.

ومن المعروف أن المعابد عند الكنعانيين تقام على مكان مرتفع لتتمتع بصفة التقديس، والقرب أكثر إلى السماء، وحتى يصل إليها المرء بعد مشقة وتعب وجهد. إن انتقاء بناء المعبد في الأماكن المرتفعة رمز لفوقية الإله وتفوقه وقدسيته ومحوريته. في كل قرية أو مدينة كنعانية يقام معبد للإله وهذا المعبد لا بد أن يرتفع ويطل على المدينة أو القرية بمن فيها من بشر وبما فيها من حيوان ونبات وأرض وماء. ان هذا الارتقاء يرمز إلى رعاية الإله لشعبه والنظر إليه بحرص وشفقة. وحتى يهب له الأمطار والخير يجب أن يطل من الأعلى ليعرف ما يحتاج هو وأرضه وحيواناته.

وفي مجمل الأساطير البعلية نرى أن (بعل) يقيم في جبل (صفون). أي

الجبل المنتقى المصطفى العالي الذي يصعب الوصول إليه. وحسب اعتقاد الكنعاني أن (صفون) هو أعلى قمة في بلاده الممتدة من غزة جنوباً حتى رأس شمرا (أوغاريت) شمالاً.

ولعل رمزية المركز تقود إلى رمزية المكان، رمزية الأرض وما تحت الأرض. ورمزية الانهار والبحار، ورمزية الجبال والسهول. ورمزية المدن والقرى.

لقد تخيل الانسان القديم الكون، وتخيل شكل الارض والسماء. ومواقع المعابد والنجوم. ومصادر الرياح والأعاصير. وكما هو الحال عند الشعوب القديمة التي تخيلت قبة السماء، ومحور الارض فان الكنعانيين رمزوا الى كثير من حالات خلق الارض، والسماء والأنهار، فالارض مغلفة بثلاثة أغطية، وذلك لحمايتها من الارزاء والمصائب. وقد يرمز إلى عادة النوم تحت الاغطية فإذا ارتفعت أغطية الارض الثلاثة تصبح الارض معرضة للأذى وبالتالي فريسة للارزاء. والاغطية انواع. فحينما يرمز -برصاص الامراض- فانه يعني الغطاء الخشن الثقيل على عكس الطل الندى. الذي يرمز إلى الغطاء الخفيف. وينبىء عن نوايا السماء الطيبة فيقولون الأرض تغطت من جديد.(٥) ولعل هذا ذو علاقة وثيقة بالامور الزراعية في بلاد كنعان. ففي الصيف تعتمد الأشجار البعلية لا سيما في الهضاب والجبال على الندى الذي يلعب دور المطر في سقاية الزرع. ومن المعروف أن جبل الكرمل يمتلىء بالغابات الطبيعية المعتمدة كليا على الندى والرطوبة في حياتها منذ وُجد الكنعانيون فيه وحتى الآن.

وحين تغطي الغيوم السماء فإن الأرض تظلم، ويظلم العالم. وتصبح الأرض حبيسة بفعل هذا الوجود. وكل شيء في الطبيعة حي وله روح. فالارض التي تصلي للآلهة تطالب بأن تُمجَد. وفي الأرض يرقد كل جلال الإنسان. إنها تمنح كل استراحة للذين يموتون. ان الطبيعة تحب البشرية، فتتدخل من أجلها. غير أن البشر والآلهة يمكنهم أن يسيئوا لها فيمكن تكبيل السهول، وإثقال وطأة الظلمات على البساتين. والطبيعة في حالة الحلم تأمل في الشفاء. وتقديس الأرض يرمز له بنثر كيل من الحبوب عليها أو

نثر الغبار على الرأس ولعل عبارة الأرض وتقديسها يُرمز إليهما من خلال عهدة البشر لها بأجساد الأموات. وعبادة الأرض بشكل عام عند الكنعانيين، ترتبط بعبادة الأموات. ولعل حركات التألم والتوجع اللتين يظهرهما الكنعاني ترمز إلى نوع من الحزن والحداد. وقد سرق اليهود هذه العادة من الكنعانيين. فهم إلى هذا اليوم يجلسون على الأرض وينثرون التراب على رؤوسهم.

ونرى أن للأنهار رموزها. فهي تنقل الأخبار الجديدة إلى مسافات قصيَة بعيدة. وجداول المياه هي كالأنهار، بمقدورها أن تتنبأ. وتحمل إلى أماكن بعيدة الأخبار الطيبة بواسطة خريرها.

وترد إشارات كثيرة إلى أن حجارة الطرقات تعرف الصلاة، والبكاء، والنواح. وهذا البكاء رمز لطاعة الإنسان للإله -إيل- الذي خلق الكون. ويرد في ذلك تعبير الأرض الحبيبة الذي يعني خلال سياق النص أن الإنسان عندما يموت يذهب ليستريح قرب حبيبته الأرض. وكما للأنهار قدسيتها وللأرض كرامتها، فللبحر قدسيته أيضاً فثمّة شكل للروح الذي يعيش حياة بطيئة في عمق البحر، في مملكة (بعل). وهناك جميع الأموات يكونون قد شهدوا تحركاته وأفعاله.

ويرد كثيراً أن الميت يسكن تحت التراب في (ضنك الصل) وهو رمز لسم الحية.

ولعل تقديم الخبز والطحين والخمور إلى آلهة الأرض هو رمز لإرضائها. ورمز للإيمان بأن الميت ينتظر حياة أخرى بعد الموت. ذلك الميت الذي يقيم في الظلمات. ولهذا كان الكنعانيون يقدمون ذبائح بعض الحيوانات، ويصبون الخمور على القبور، كما يقدمون القرابين إلى النصب الجنائزية في الغابات.(٦)

وحتى يضمن الكنعاني للأرض خصوبتها، فإنه يرمز لذلك بالاتحاد الإلهي، إذ عندما يتم زواج الإله يبدأ المطر بالإنهمار. وتلك الخصوبة يوفرها اتحاد الملك الاحتفالي، إتحاد الزوجين فوق الأرض. فالعالم يعيد ولادة نفسه، وبالتالي كلما تمت عملية محاكاة للزواج المقدس. أي كلما تم

اتحاد بالزواج. والزواج يعيد ولادة السنة، وبالتالي يهب الخصب والوفرة والسعادة.

وعلى ذلك فإن الزواج بشكل طقوساً تحاكي بوادر إلهية أو أقاصيص معينة من دراما الكون المقدسة.(٧)

وعلى العكس من ذلك فإن الإشارة إلى (عنة) إيل (أي عدم مقدرته على الإخصاب) تعني بدء السنين العجاف. على حين تعلن رجولته عند ابتداء دورة السنين الوافرة.

● الرموز الإلهية- السيادة والخصب:

عبد الكنعانيون الإله (إيل) لكنهم عبدوا إلى جانبه (بعل) و(عناة) و(عشيرة) وبقية المجمع الإلهي الكنعاني. وقد عثر على نقوش أثرية للإله (بعل) والآلهة (عناة) و(عشيرة) و(أشتار) غير أن الإله (إيل) أضفوا عليه صفات الاحتجاب والتخفي. فبدل أن يقام له نصب أو صنم أو تمثال يرمز له، فإنهم استخدموا إشارات ورموزاً مادية ترمز لطبيعته ولا تجسده، وبسبب من علاقة الآلهة بالخصب فإنهم رمزوا للإله (إيل) بالثور الذي يمثل عند الكنعانيين الخصب والعطاء والقوة في قلب تراب الأرض. وقد ورد في نصوص أوغاريت أن (إيل) يطلب الزواج ليثبت أنه لم يعجز. لقد تهامس أبناؤه أن أباهم قد شاخ وهو غير قادر على الخصب. ولذلك يطلب الزواج من امرأتين معاً. وعندما يتزوجهما يظهر قوته الجنسية فتحمل المرأتان وتلدان له إلهين. ثم تحملان مرة ثانية فتلدان له إلهين آخرين، وحتى يطمئن الكنعاني أن الأرض الزراعية يجب أن تظل وافرة الغلال مخصبة، نظر إلى (إيل) نظرته لمعبود قوي الإخصاب. قادر على استمرار الإنبات. وخضرة الأرض.

ولما كانت بلاد كنعان تعتمد على الأمطار في الزراعة. فقد كانت رموز الخصب تسيطر على غيرها من الرموز الطبيعية الأخرى.

وقد أصبح معروفاً أن الإله (بعل) يمثل المقام الثاني بين الآلهة الكنعانية بعد (إيل) لقد انتشرت عبادته بشكل كبير وكثرت الرموز التي تحيط بعالمه

وصفاته، وأعماله، ومجال عبادته، وهو قبل أي شيء، اخر يحمل صفات كثيرة، ومتناقضة أحيانا كثيرة. فهو إله الصواعق، والبروق والزلازل وإله الحرب لكونه إله الخصب والإنبات. يمثل بعل سيادة الرجل في المجتمع الكنعاني، فمعظم أساطير كنعان تدور حول -بعل- والبعليم- من أسطورة الخلق إلى أسطورة الموت والانبعاث.

إن أول عمل يقوم به (بعل) بعد عملية خلق الكون -جلب السحاب وإنشاء البروق والرعود، كي تخصب الأرض، وما دام (بعل) حيا فإن الأرض تظل مخصبة. ولكي تكون هناك دورة حياتية للزراعة، لا بد أن يموت لمدة سبع سنوات تجدب فيها الأرض وتمحل وقد تتعدد أشكال الموت الرمزي البعلية. فتارة يموت خوفاً من الإله (موت) رمزاً للخوف من الفناء والموت والإندثار. وتارة أخرى يموت قتلا بسبب هجوم الوحوش الإلهية البرية رمزا لغطرسة (بعل) وتحالف القوى الأخرى ضده، وتارة يرمز إلى موته بحرق معبده واشتعال النار فيه، وهذا يعني تحديدا دورة الحياة وتجددها، ولعل موت (أقحات) في أسطورة (أقحات بن دانيل) يعني إنحباس المطر وجفاف الزرع وهذا يشبه تماما ما يحدث في أساطير (بعل).

وقد تعرض -بعل- لكثير من الصعود والهبوط حيث قتل في دورات الجدب والحرمان ونهض في كثير من دورات الخصب والوفرة. وكانت كثرة الصعود والهبوط أمراً مطلوباً بحكم الطبيعة ذاتها في الشرق الأدنى.[٨]

وبسبب تحكم مفهوم الصراع بين الشر والخير عند الكنعانيين، فإنه أي -الصراع- حينما يحتدم بين بعل وموت (بعل إله الخصوبة والحياة) و(موت إله العقم والفناء) لا تبرز أهميته بسبب الحدث، إنما بسبب الرمز، أو بسبب النتيجة التي ستكون عليها الأرض، وبسبب أهمية الإلهة -عناة- فقد أضفى عليها الكنعانيون نعوتاً ورموزاً كثيرة يتعلق مجملها بالخصب، والوفرة، فهي في شكل أولي تسمى -الخطابة- التي تعقد القران بين الشاب والفتاة. وهي بهذا المعنى تمجد الإخصاب وإنتاج الأولاد تماما مثل أبيها الإله الكبير -إيل- وهي بذلك أيضاً تكره العلاقة العابرة والإباحية. وإن هذه الإباحية لا تخصب ولا تلد من يرتبط بالأرض وزراعتها، وخصبها ووفرة

علاتها. وقد ورد في نصوص أوغاريت أن عناة كانت معادية للملك الكبير لا سيما حين قتل أخوته السبعة وهذا العداء نابع من كونها تكره القتل للأولاد لانهم يمثلون استمرارية الحياة، وبقاء الجنس البشري على وجه الأرض وقد تجلى حب عناة للخصب والوفرة في دفاعها المستميت عن أخيها الإله (بعل). اي عن إله الخصب والأمطار رغم أن البعلية ترمز إلى سيادة الرجل على المرأة وعلى المجتمع. ورغم أن عناة تمثل الأنثى التي لا تحيا دون -بعل- الا أن ما أحيط بها من رموز إلهية يعني قدسية المنبع الذي يهب الارض خصوبتها.

وحين تعدد (عناة) انتصاراتها السابقة على أعداء بعل فإن ذلك يرمز إلى انتصار قوى الخير والإخصاب على قوى الشر والقحط أو الموت. ويتضح أن عناة كانت تحمل دوماً القرن الذي يرمز تارة إلى المحراث الذي تقلب به الارض، وتارة إلى الوعاء الذي يوضع فيه الزيت المقدس أو الخمر وفي الحالتين نرى أن الرمز يوحي بالخصب والوفرة.

لقد كان القرن أحد أهم الرموز التي تلتصق بتمثال الالهة عناة. إضافة لعدد اخر من الاشياء الموحية إلى أنها إلهة الصيد والمعركة، وما إلى ذلك.

وفي منحى اخر فان طبيعة البيئة الزراعية في مناطق الكنعانيين خلقت لديهم تصورات عن علاقة الالهة بمفهوم الخصب. فتمثيل العمل الزراعي بإقامة الزواج بين بعل أو غيره من جهة وبين عناة وغيرها من الإلهات من جهة أخرى يعني تماما تعلق الانسان بمفهوم الاخصاب، وخوفه من الجفاف والقحط، وهذا يعني ايضا تنشيط قوى الانبات لدى الزرع. وكل زواج يقوم يعني زيادة الوفرة. ولذلك نجد (عناة) تشجع الشباب والفتيات على الزواج ضمن طقوس واحتفالات تتناسب زمنياً مع بدء عملية الإنبات.

لقد أدرك الكنعاني كيف يرمز لكل اله أو الهة فلم يترك عبادة لتلك الآلهة دون أن يطبع الإشارات اللازمة الموحية لكل اله أو الهة. فكما حملت عناة القرن، وحمل (بعل) سيفاً له شفرة تتلألا فإنه أيضاً أعطى الشخصية المركبة (الموت والشر) (صولجانيين) يقبض عليهما في إحدى اليدين

قضيب الحرمان، وفي الاخرى قضيب الترمّل، الحرمان من الإنجاب، ومن ثم ترمّل الزوجة، وفقدان زوجها الذي يهبها الانجاب وكثرة الأولاد.

وحين صوّر الكنعاني الإلهة الأم (عشيرة) فإنه صورها وهي تُرضع من ثدييها إلهين وذلك رمزٌ لإضفاء الألوهية عليهما. وفي المعتقد الكنعاني يجب أن يكون ملك البلاد قد رضع من (عشيرة) حتى يكون على صلة بالآلهة، وعلى هذا فإن الملوك يدورون في الدوائر الإلهية والبشرية. بمعنى أن الملك لا يصبح ملكاً إلا إذا كان من السلالة الإلهية المقدسة. وحينما يرى الكنعاني الإله (إيل) وقد تجلّى ليجعل البشر ينعمون بالخيرات فإنه بتصوره وقد خلق سبعة أبناء أطلق عليهم آلهة الخصب السبعة وذلك من أجل إقامة دورة من سبع سنين يعم فيها الرخاء وتكثر الغلال.

ويرد في نصوص أوغاريت أن (عناة) تقتل الإله (موت) وتحرقه وتطحنه بمطحنتها اليدوية ثم تدفنه في الأرض. ويعني ذلك أن اتصالاً ما يحدث بين الموت وبين وسيلة الخلق في المستقبل. فالحبة لا تنبت إلا بعد أن تموت. والفلاح ينثر الحبوب على الأرض ثم يقلب التربة فتموت ثم تخلق نباتاً يكون من شأنه الإكثار، ومن الموت تولد الحياة كما يقال.

وحينما يتراءى للإله -إيل- أن الأرض ستخصب مرة أخرى ينتابه الفرح، وهذا الفرح ناشيء عن قناعته أن ابنه الإله -بعل- سوف يعود للحياة بعد موته الذي دام سبع سنوات. وحتى تستمر عملية الخصب فإن التكفير عن الخطايا أمر مهم لدى الكنعانيين ويرتبط هذا التكفير بالانعكاس النفسي السلبي على الإنسان. فكما رأينا أن (موت) يُحرق وينثر في الأرض. وتكون النتيجة -الخلق من جديد- فإننا ندرك أن سلوك الناس تجاه الخطايا والرذائل كتصرفهم بالنسبة للاثم. فالمطلوب أن يرمزوا إلى ذلك بطردها بحد السيف وإحراقها بالنار، وسحقها بالرحى، ودفنها في الحقول، وذرها في البحر. ويتراءى هنا لنا أننا أمام طقس ديني كان يقام فعلاً. فربما كانوا يكتبون على لوحة خطايا الإنسان التي سُجلت عليه ومن ثم تُطبق على هذه اللوحة ما ذكر أعلاه.(١)

ومن ذلك أيضاً نرى أن (عناة) عندما تقاتل أعداءها وأعداء أخيها -بعل-

تغسل يديها وتَطْهر. وكذلك نرى الكنعانيين يغسلون أيديهم، ويتطهرون بعد انتهاء كل معركة. كل ذلك يرمز إلى:

١ - كره الكنعاني للحرب. ٢ - وثانياً إلى عملية التطهير من خطايا القتل والدماء رغم ما نراه من عدد للرؤوس والأيدي المقطعة، والتي يرمزون بها للنصر على الأعداء. إن عملية التطهير لا تتم إلا بغسل الأيدي من دماء الجنود، والأصابع من دماء الكتائب.

وحينما يصنع الكنعانيون تماثيل آلهتهم باستثناء الإله -إيل- فإنهم يرمزون لها بمحسوسات مادية، مرتبطة بالبيئة الزراعية الساحلية التي يعيشون في أرضها.

فالثور مثلاً، والذي يظهر في الأساطير البعلية، وأساطير الخلق إنما يرمز للرجولة والذكورة وانتعاش قوى الطبيعة.

والأسد الذي هو رمز للإلهة -عناة- إنما يعني القوة والاعتزاز. بينما نرى المحراث ذا السكة الخيّرة يرمز إلى الإلهة عناة نفسها على أنها إلهة زراعية، وهي رمز الإخصاب في الأرض. بينما كان سلاح (إيل) هو القوس الحاد وهو من أهم رموز أسلحة الآلهة.

وحينما يُصور (بعل) لابساً أرديته من الغيوم فإنه يرمز إلى الآتي من الأمطار والخصب، لكنه عندما يفتح تلك الأردية يصاب البشر بالويلات، على عكس الإله (إيل) الذي يكشف عن صدره من أجل أن يقدم مأوى لمن يلجأ إليه.

وفي مقام آخر فإن الإله (إيل) يرمز إلى الأب إله الأجداد، ونصيحته المثلى تتركز على انجاب الأولاد، حتى يحتفظ الميراث بطابعه المقدس، والأرض هي الميراث الأمثل. ومن هنا جاء احترام الكنعاني للأب.

ولعل في أسماء الآلهة رموزاً لطابع عمل كل إله أو إلهة واختصاص كل منهما. فنرى مثلاً الإلهة -تلاي- ترمز إلى الطل والندى الذي يخصب في حال انقطاع المطر. ومن المعروف كما قلنا سابقاً إن ساحل فلسطين وبلاد الشام الباقية تعتمد على الأمطار وعلى الندى لتتم عملية استمرار العطاء الزراعي.

وكذلك نرى -أرساي- التي تعني القوة وهي مأخوذة من أرسى الشيء أي ثبته وركز قوته.

ومن ذلك أيضاً -بدراي- إلهة الضياء، وهي مشتقة من البدر الذي يشع بانعكاس النور، وهو في كماله الذي يظهر بشكل دائري.

وما ينطبق على هذه الأسماء، ينطبق على -عشيرة- التي تعني الزوجة و-عناة- التي تعني الفتاة العذراء.

● رموز الطقس والعبادة:

كما ورد في النصوص الكنعانية، فإن الصلاة إلى بعل لا تتم إلا إذا تعرى الإنسان تعرية تامة. وهذا يرمز للتكشف الكامل أمام الإله. فكما يعتقد الكنعاني أن الإله خلقه أول مرة عارياً، فإن العبادة لا تتم إلا إذا كان عارياً، خوفاً من عدم طهارته من جهة وطهارة ثيابه ثم هو يكشف هذا الجسد أمام إلهه قاصداً التجرد من كل ستر. ومن كل زيف. والتجرد حتى من أي شيء دنيوي مثل اللباس. وطالما أنه يعتقد أن الإله خلقه عارياً فليس هناك حرج إذا هو تعبد وهو عار تماماً. وطالما يتعرى الملك والسيد طالما أن الجميع يصلون وهم عراة فإن ذلك يعني التساوي أمام قوة الإله الجبار.

والكنعاني عندما يصلي للإلهة عناة فإن أول عمل يقوم به هو رفع عينيه إلى السماء، وهذا رمز لإيمانه بأن الإلهة تسكن في السموات ولا تطالها المخلوقات.

ويشرع المصلي بالبكاء، والنواح، ويشتم الآلهة المعادية لبلاده، والبكاء والنواح ليستا إلا عملية تطهير وخضوع. والبكاء بحد ذاته لا يتم إلا عند الشعور بثقل الذنب. ولذلك يرون في البكاء غسلاً للذنوب. ولعل النواح الذي يرافق البكاء يرمز إلى درجة الخضوع للإله. فالصوت الذي ينطلق من المصلي مرافقاً بالدمع، هو صوت الحزن الذي ترافقه مشاعر الألم والتضرع. وهذا ما يرمز إلى أن الإله سيستجيب للمصلي بعد هذا التضرع وهذه الدموع.

ويعتبر تقديم القرابين من أهم الأعمال التي يقوم بها الكنعاني، ورموزها تعتبر رموزاً شعائرية، والرمز هنا إما تكفير عن الذنب، أو عرفان بالجميل، والحمد والشكر للآلهة على ما تحدد من خير للناس أو من أجل التخفيف من الآلام والمصائب.

وأكثر القرابين التي تقدم هي من الأيائل والثيران الصغيرة. وأحياناً كانت تصطاد حيّة وتقدم على مذابح الآلهة. واختيار الأيائل حيّة يعني لدى الكنعاني قمة التضحية بأفضل أنواع القرابين التي تقدم لترضي الآلهة.

ومن الطقوس المهمة صب الخمر للآلهة كي تتلذذ به السماء. وهو رمز لإنهاء حالة الجفاف، وكما أنهم يرمزون لعدم مس كرامة الإنسان بصهر المعادن الثمينة كالذهب والفضة في النار. وكان يقصد بذلك الصهر تطهير المكان الذي يعبد فيه الإله كقصر الملك أو المعبد ولعل حرق البخور، يقصدون من ورائه طرد الأبالسة، وحرق البخور عملية تطهير واضحة. وما زالت متبعة في كثير من الديانات الشرقية، وهي بالمحصلة النهائية عملية اعتقاد طقسية لا تتم إلا لترمز إلى كره الكنعاني للأبالسة وتواجدهم في أماكن عبادته أو بيته.

ومن الطقوس ترك النار مشتعلة تضيء البيت ويرمز ذلك إلى إيمان الكنعاني بأن الميت لا يموت فعلاً طالما عبادة الأجداد قائمة، وتنتقل من الاب إلى الابن إلى الحفيد.

وقد أضرمت النار في قصر الملك الكنعاني الكبير. وكان الإضرام بأمره هو، حيث كان يقصد تطهير القصر من الرجس وأفعال الأبالسة، والأخطاء التي ارتكبها، والسيئات التي لحقته. ولعل أهم الرموز التي تعبر عن حزن الإنسان وخوفه، تلك التي تعتمد على الكلام، فللكلام تأثير سحري على الاشياء. فعندما لا تخرج الصلاة من الفم فكأنها لا تجتاز الشفاه. وتأثيرها منعدم، وأي إعلان من فم إله أو إبليس إنما هو قرار لا مرد له. فيقولون أعطاه صوته، وهو رمز للغضب. وتنبؤ بوقوع الأرزاء. عندما يأتي من بعل، وهو يتحدث من بين الغيوم، علماً بأن صمت الآلهة هو أشد أنواع الغضب. فالآلهة تهدد بالصمت متى أعلنت أن ريقها جف. والآلهة

تقود البشر ، وهي تشير بيدها إليهم نحو ما يجب عمله.[١٠] ويرمزون إلى إرضاء الآلهة بإروائها بالشكاوي، وذلك بقصد الاسترحام. وقد سبق وتحدثنا عن كيفية صلاة الكنعاني، وما يقوم به أثناءها من نواح وبكاء، وتعفير الرأس بالتراب.

ويعتبر الكلام المنطوق من أهم الرموز التي تحمل في نفسها قوة لا تتزعزع، وهي بمثابة حكم قضائي، حتى أن الإله -إيل- إذا ما نطق (بخير سيء فلا يستطيع محوه إلا بموجب عملية تطهير. وقد مر معنا كيف تتم عملية التطهير هذه (بالحرق أو بالماء والغسل).

وتكثر الأعداد الرقمية في الأساطير الكنعانية، والمدقق فيها يرى أنها ظاهرة عامة لدى شعوب العالم القديم.

ويرى البعض أن رمز العدد يعتبر ظاهرة نفسية هامة جداً للتمييز بين مختلف جنسيات الشعوب، وذلك بحسب ما يكون النص قد أعطى الاولوية إلى الاعداد ٣-٥-٧-١٠-١٢ أو ٤٠ وهي الاكثر استعمالاً بين الاعداد. ولعل القصص التي تعتمد بالدرجة الاولى رقم (٧) هي من التقاليد الكنعانية الصرفة[١١] وقد سرقها اليهود بعد احتلالهم للارض الفلسطينية واغتصابهم لتراث شعبها.

وتلعب الأرقام العددية دوراً مهماً في الإفصاح عن نفسية الشعوب، لا سيما ما يتعلق منها بالتشاؤم والتفاؤل والنحس والسعد.. فمن المعروف مثلا أن الشعب الياباني يتشاءم من الرقم (١٣). والشعوب في الشرق الادنى تتشاءم من يوم الاربعاء. والبعض يتفاءل بالرقم (٥) أو ما شابه ذلك. وهذا كله يفصح عن علاقة حدثية ما، بالرقم المكروه أو المحبب، ويصبح في المخزون النفسي والعقلي ذا دلالة معينة ترتبط إلى حد بعيد بجانب اسطوري أو معتقدي، ومنذ النص الاوغاريتي الاول، نجد التركيز على الرقم (٧) حتى أن التركيز ينسحب على كثير وكثير من أعمال الآلهة.

ففي النص ٥٢ يرد على لسان (إيل) كبير الآلهة ما نصه: ادعني أعلن الآلهة الطيبين الكرام وهم السابوع من آلهة الخصب متجبهم إيل من أجل اقامة دورة من سبع سنين رخاء.

وفي النص نفسه سطر ٣٠- يرد أنه يجب تلاوة شيء أو أدائه سبع مرات في المحافظة على موضوع السابوع. ويقوم مقدس عناة بالدوران حول مكان تواجد الآلهة (سبع مرات) وبذلك لا يصح التعبد إلا بهذا الدوران حول المعبد.

ويبين القسم السادس من النص ٥٢ من نصوص أوغاريت منظر مساكن الآلهة، ويحدد شعائر أخرى ذات سبعة أركان. ويرد أن إيل يخاطب أبناءه السبعة بقوله (أنتم هناك ستقيمون بين الأشجار والاحجار سنين سبعا سويا).

وتعني السنين السبع من الإقامة في البرية بين الأشجار والأحجار، أن دورةسبعية سيئة قد وقفت، وأن دورة سبعية طيبة عن طريق التعاقب توشك أن تبدأ.[١٢] وحين تنقضي السنون السبع العجاف يهيأ الخيّرون للدخول الى الأرض الخصبة، حيث يقيم الحارس الذي يأذن لهم بالدخول.

وفي الاساطير البعلية تتكرر عملية الخصب السبعية، وتقابلها عملية الجدب السبعية أيضاً فعندما ينتصر (بعل) على (يم نهار) تعم الوفرة سبع سنين، وعندما يُقتل (بعل) يعم الجفاف سبع سنين. وقد تكررت هذه العملية مرارا.

ويرد في النص ٧٥ من نصوص أوغاريت أن الإلهة (عشيرا) زوجة الإله (إيل) تحتفل مع (بعل) وأبنائها السبعين، وواضح أن رقم سبعين هو من مضاعفات رقم ٧.

وفي أسطورة الخلق يرد أن الإله بعل يصارع التنين ذا الرؤوس السبعة وذلك ليرمز إلى قوى الشر، وقد اعتمدت التوراة في أسفار التكوين على النص الكنعاني. (فالإله يهوه يقتل التنين لوياثان ذا الرؤوس السبعة) وقد هضم العبريون أسطورة الصراع مع لغة كنعان وادابها ومأثوراتها منذ البدء الاول من التاريخ العبري أثناء الغزو لارض كنعان.

والرقم ٧ الذي وضع ليرمز إلى رؤوس التنين السبعة يدخل ضمن أساطير العالم القديم بشكل مجمل. ففي الأسطورة الأكادية يرد أن أبطالا يقضون على وحش ذي سبعة رؤوس. (وطبقاً لذلك تشير كل الشواهد

المتاحة إلى إنتشار هذه الأسطورة المزدوجة في العالم السامي. ومن ثم دخولها عالم الأسطورة الإيرانية).[٢٣]

وحين يدور الصراع بين الإله (بعل) والإله (موت) ويتغلب بعل عليه يستلم ملكه مدة سبع سنين. وفي العام السابع يتهم (موت) بعلاً بتعريضه لسبع سنين من الفناء. إن هذه الأرقام السبعية لا تستعمل جزافاً كما تراها العين. إنما لها رموزها ومدلولاتها.

وفي الحياة الاجتماعية، والسياسية تدخل مسألة الأعداد لا سيما العدد ٧ بشكل واضح لتشكل استمراراً للاعتقادات والميول النفسية لتلك الأعداد ففي عهد الملك الكبير يرد أن عدد أخوته سبعة. وبالرغم من أن عدد ٧ ورد أيضاً في لائحة الذبائح التي قدمها (نيكمد) خليفة الملك الكبير، إلا أنه يجب أن نبقى محترزين حيال ذلك. فالتعبير المستعمل في أحد النصوص الاوغاريتية يمكن تفسيره برقم (٧٠) ولكن لا نرى من الطبيعي أن يقدم الملك سبعين ذبيحة من الأيائل. وترجمة العدد يجب أن تكون مضاعفات الرقم (٧)[٢٤].

ويرد في كتاب اللآلىء، نصوص من الكنعانية أن الرقم ٧ يرد في القصص والأساطير الكنعانية وهو من موروثاتهم، بينما الرقم (٣) يعود إلى مصدر أجنبي ربما إلى الشعب الحثي أو الحوري. وقد ورد بشكل نادر في القصص الكنعانية وأساطيرهم.

وفي أسطورة الخلق يرد أن الإله يخلق الأرض والسماء والأنهار وكل ما على الأرض في أيام ستة ويستقر على عرشه في اليوم السابع.

وقد أوردنا أن الملك يأمر بحرق قصره لتطهيره، وهذا الحرق لا يتم إلا في سبعة أيام. ومن جانب اخر فقد تم بناء معبد الإله (بعل في سبعة أيام) أيضاً.

وفي أسطورة كريت يعيد إيل السؤال سبع مرات على الآلهة دون جواب.

وكان من عادة الكنعانيين أن يقيموا وليمة تذبح فيها الأضاحي، وذلك في اليوم السابع بعد وفاة الإنسان. ويولم أسبوع الميت في معبد بعل.

وفي أسطورة أقهات بن دانيل يرد أن دانيل يغلبه النعاس في اليوم

السابع، فينام على فراش من الخيش، ويحلم ويتحنن للإله (بعل) كي يتوسط له لينجب له غلاماً.

وفي قصر بعل عمرت سبع غرف، وكذلك في معبد إيل تعمر سبع غرف. وهذا أصبح تقليداً أسطورياً لدى الكنعانيين.

وقد سرق العبرانيون استخدام الرقم (٧) ورموزه ولا يخلو نص توراتي من إيراده أو من إيراد مضاعفاته. فالملك أدوني صادق يتحالف مع ٧٠ ملكاً. وفي قصة جدعون أحد ملوك الغزاة اليهود يُقدم ثور كذبيحة عمره سبع سنين. وورد أن لهذا الملك سبعين ابناً. وفي قصة ابيمالك تقدم هدية له مقدارها سبعون قطعة ذهبية، ثم يرد أن أبيمالك قتل أولاده السبعين. وخلق العالم من قبل الرب يتم في سبعة أيام وقتل التنين ذي الرؤوس السبعة. وكثير من هذه الاستخدامات التي لا تخلو من السرقة والاغتصاب.

ويرد في النصوص الكنعانية استخدام أرقام أخرى، لكنها لا تتجاوز الاستخدام النادر وذلك يدل على أن الكنعانيين قد أخذوا من غيرهم هذه الاستخدامات لا سيما عن الحثيين والحوريين. فيرد مثلاً العدد ثلاثمئة أو العدد تسعة والعدد اثنا عشر. غير أن هذه الأعداد لا ترمز لشيء سوى أنها ترد في سياق النص.

ومع ذلك فإن النصوص قد احتوت تعبير الألف فدان، والمائة ألف هكتار، وهذه الصيغة تعبير عن سرعة الآلهة التي ترحل بها. كذلك يمكن التعبير عنها كلها نثراً بالقفزات والوثبات.

وإيراد الأرقام الكبيرة والمئة والألف ليست سوى تعبير عن الكثرة ككثرة القتلى أو كثرة عدد الجنود أو كثرة الأبالسة والشياطين أو كثرة عدد الأوعية المحتوية على أنواع المحاصيل كالخمر والقمح وغير ذلك.

● رموز التضخيم ودلالته الأسطورية في التوراة:

منذ أن توجه اليهود لاحتلال فلسطين وضعوا في تصوراتهم الدينية مبررات الاحتلال والقتل والتوسع. وعلى هذا المبدأ، فقد جاءت تعاليم كتبهم

المقدسة مطالبة بالتفوق العنصري اليهودي، واضطهاد الشعوب الأخرى واحتلال أراضيها.

وقد أصبح معروفاً أن التوراة كتبت على يد الكهنة اليهود، والكتاب الناسخين بعد وفاة النبي موسى بـ ٧٠٠ عام، وهذا الكتاب يحتوي على كثير من الرموز التاريخية والأسطورية المدونة حسب توجهات كبار رجال الدين اليهودي وأهوائهم، وهذه الرموز، وهذا الحس العنصري الذي يبدأ منذ التدوين، لا ينتهي عند زمن محدد أو مكان معين.

ويتضح من خلال أسفار التكوين، أن أسلوب التضخيم والتهويل يطغى على طريقة العرض التوراتي، وهذا ما يوقع التوراة نفسها في مطب التناقض، والبعد عن المنطق الأسطوري الذي يمكن أن نراه في أساطير البابليين والكنعانيين وغيرهم. وهذا لا يعني أن ما جاء فيه يقترب من المنطق الواقعي. بل المسألة تتعلق بتلك المدونات المسروقة من هنا وهناك، والوقوع في عدم حسن الاختيار، والربط بين الأحداث الأسطورية وأزمانها وشخصياتها. وطالما أن الهدف الديني والعرقي يحتم على التوراتيين تصوير الآخرين بالدونية، فإن ما دونه الكهنة اليهود لا يتناسب إلا والمصلحة الاستعمارية الصهيونية.

لقد أدرك هؤلاء الكهنة، أنه لا يمكن تحقيق الأهداف المستقبلية لليهود إلا إذا اختطوا منهجاً عنصرياً، من شأنه أن يوحد تلك القلة من أتباع دينهم وهكذا تتم اليوم أساليب التربية الصهيونية، فهي تعتمد على الحقن العنصري، وإشباع النفوس بالعظمة من جهة، وبالخوف من جهة أخرى. وأعني الخوف من الآخرين الذين حسب زعم الكهنة يريدون القضاء على هذا العنصر النقي.

١- إن أول ما يطالعنا من أساليب التضخيم وقلب الحقائق قضية لعنة نوح لكنعان أبي الكنعانيين. ففي سفر التكوين الإصحاح التاسع يرد: (وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث وحام هو أبو كنعان. ثم يرد: وابتدأ نوح يكون فلاحاً، وغرس كرماً، وشرب من الخمر وسكر. وتعرى داخل خبائه. وأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ووجها أخويه إلى

الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته وقال: فبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبداً لهم، ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم).

في النص الأول تورد التوراة اسم حام واسم ابنه كنعان ولم يرد اسم ولد من أولاد سام أو يافث رغم اعتراف التوراة أن حام هو الابن الأصغر لنوح ورغم اعترافها أيضا أن أولاد يافث وسام كثيرون وقد انتشروا في جميع أنحاء الأرض. وإيراد اسم كنعان يأتي ليكمل كهنة التوراة تتمة قصتهم عن نوح، وكشف عورته من قبل حام وصب اللعنة على ابنه كنعان. وطالما أن حام هو الذي كشف عورة أبيه نوح فلماذا لا يصب نوح لعنته عليه مباشرة، لماذا صبها على ابنه كنعان وما ذنبه في كشف عورته. ثم إذا كان نوح حسب راي التوراة هو أبو الانبياء فكيف يجيزون له أن يسكر من الخمر ويفقد عقله وتوازنه ويكشف عورته.

المهم في الأمر أن كتابة التوراة تمت من قبل كهنة اليهود أثناء احتدام الصراع بين الغزاة اليهود وبين أصحاب الأرض الكنعانيين في فلسطين والساحل الشامي، وحين اشتد صمود أهل البلاد أمام الغزو العبري أراد الكهنة حقن اليهود لكره الكنعانيين حتى الحقد الأعمى. فأوردوا في التوراة هذا القدر الميتافيزيقي أن كنعان ملعون وأن نوح وعد ابنه ساماً وأحفاده بأن يسكنوا أرض كنعان ويطردوا أبناء كنعان منها. وهكذا فقد وجد الكهنة في أول الأمر المبرر القدري الإلهي لليهود كي يستمروا في قتال الكنعانيين واحتلال أرضهم.

إن الحقن الميتافيزيقي الكهنوتي اليهودي لعب الدور الأهم في خلق الحس العنصري الدموي لدى اليهود. ولعنة نوح لكنعان شكلت لديهم القناعة الأولى بأنه يجب على اليهود تنفيذ وصايا إلههم بقتل الكنعانيين أو طردهم أو خداعهم ومن ثم احتلال أراضيهم.

وقد رفضت الدراسات التاريخية، والكشوف الأثرية مقولة إن كنعان هو ابن حام، وقد أكدت أن كنعان والكنعانيين هم عرب جاؤوا من جنوب شبه

الجزيرة العربية في عام ٣٠٠٠ ق.م. حيث لم يكن في هذا الوقت عبرانيون على أرض الوجود. ومسألة كون كنعان هو ابن حام مسألة تخص التوراة، والتزوير التوراتي وحدهما. ولا علاقة لهذه المسألة بالمنطق التاريخي العلمي أو الأسطوري الميثولوجي. ثم ليس هناك ما يثبت أن لنوح ثلاثة أولاد هم حام وسام ويافث وإلى جانب رفض الدراسات التاريخية لهذه المقولة فإن القرآن الكريم يرفضها حيث لم يرد أن لنوح ثلاثة أولاد بهذه الأسماء. ويرى القرآن أن لنوح ولداً واحداً غرق أثناء الطوفان حيث كفر الابن بما قال به نوح. وقد قال لأبيه إنني سأحتمي في جبل عالٍ حين الطوفان فقال له أبوه، لا عاصم اليوم من أمر ربي. وغرق ولد نوح، ولم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن لعنة ما أو عن أولاد ثلاثة لنوح.

إن كلمة سام والشعوب السامية مصطلح أطلق في القرن الثامن عشر. والذي أطلقه المؤرخ والباحث النمساوي (تسلوتسر) ١٧٨١. مستنداً في ذلك على التوراة. وقد أكد الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) إن مصطلح شعوب سامية مبهم بينما مصطلح شعوب عربية أقرب إلى المنطق العلمي لأن هذه التسمية ملموسة لمفهوم. وقد أطلق اليونان والرومان اسم العرب على سكان الجزيرة العربية منذ الألف الأولى ق.م. أي قبل نشر مصطلح شعوب سامية بألفي عام. وليست مصادفة إذاً أن يختار اليهود أرض كنعان العربية ليستعمروها ويستوطنوها فبعد صب لعنة نوح على حفيده، صار اليهود ينسجون القصص والأقاويل حول إنحطاط سكان فلسطين من العرب الكنعانيين. وما زالت هذه النظرة تمارس إلى اليوم. فقتل العربي هدف مهم لدى الكيان الصهيوني طالما أنه ينظرهم من نسل الشعوب الملعونة والمنحطة.

٢ - ولعل من أهم الرموز الأسطورية ذات الدلالات التضخيمية في التوراة أسطورة عوج بن عناق الجبار الفلسطيني.

فماذا تقول التوراة عن هذا الرجل؟؟

في البداية يأتي التمهيد عن تضخيم قوم عوج العناقيين حيث تقول التوراة في سفر العدد الإصحاح الثالث عشر: (رأينا فيها أناساً طوال

القامة وقد رأينا هناك بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم).

وتقول التوراة إن عوج بن عناق كان ملك منطقة واسعة في جنوب ووسط فلسطين وطوله ثمانون ذراعا. وقد بعث موسى اثني عشر نقيبا ليتجسسوا على أرض كنعان. فرآهم عوج وأمسك بهم، ووضعهم على رأسه وأخذهم إلى امرأته وسألها ماذا يفعل بهم؟ فقالت له اتركهم ليخبروا قومهم ماذا رأوا، فتركهم.

واتفقوا أن لا يقولوا شيئا لكن بعضهم أفشى السر لأقربائه خوفاً على قتل عوج لهم ودب الرعب في صفوف جنود موسى. وتراجعوا عن حرب عوج والعناقيين. وتقول مصادر التوراة إن موسى حمل عصاه واتجه لمقاتلة عوج. وعندما وصل قفز في الهواء. وكان طوله ثمانية أذرع وقفز أيضاً ثمانية أذرع، حتى وصل كعب عوج بن عناق فضربه بالعصا وجرحه جرحا بليغا مات على أثره.

هذا ما تورده التوراة. وقصص التوراة عن عوج بن عناق، وكأن الأمر حقيقة لا تخلو من أسطورة.

ترى المصادر الأخرى أن عوج شخصية أقرب ما تكون خرافية لأن عوج حسب المصادر الأسطورية عاش في زمن نوح، وأسطورته الخرافية تكمن في كونه عملاقا كان يُخرج السمك من البحر ويشويه على الشمس. وانه كاد أن يمسك بسفينة نوح وأن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه.

أما رمزية التضخيم فتكمن في كون عوج رجلاً من العمالقة وأنه مخيف وهائل الجثة وجبار، ورغم جبروته استطاع موسى قتله وهو لا يشكل شيئاً يذكر بالنسبة له. وطريقة القتل لا تبتعد كثيرا عن النمط الأسطوري للحدث. فموسى يضرب العملاق بعصاه أو بسيفه على كعب رجله. بمعنى أن إصابته لم تكن في مكان حساس حتى يقتل. ثم يتساءل المرء هل كان عوج مكتوف اليدين أم أنه كان نائماً أم ماذا؟!

ان ذلك لا يدل إلا على أسلوب التوراة في تضخيم شخصية الخصم واحاطته بهالة من الرعب. ثم اصطناع حدث القتل لهذا العدو، على يد رجل

عبراني ضعيف جداً أمام أمثال عوج بن عناق.

وليس هذا هو الحدث الأسطوري الوحيد الذي يستخدم فيه كاتب التوراة رمزية التضخيم بل إن التوراة تزخر بمثل هذه القصص الأسطورية المخالفة حتى لنسق النصوص الأسطورية.

وقد ورد أن داود كان راعيا، وقد استعان به الملك اليهودي (طالوت) الذي يسمّى شاؤول على قتال جالوت الملك الفلسطيني الجبار. فبعد محاولات عديدة، ومعارك عنيفة لم يستطع طالوت وجيوشه من الغزاة اليهود أن ينتصروا على جالوت. وجاء في صموئيل الأول ـ ١٧ ـ (وفيما هو يكلمهم إذا برجل مبارز اسمه جوليات الفلسطيني من (جت) صاعد من صفوف الفلسطينيين، وتكلم بمثل هذا الكلام، فسمع داود، وجميع رجال اسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً).[١٥]

إذاً فجنود شاؤول أي طالوت يهربون أمام الجبار جوليات، ويتبرع داود لقتله فيدخل ميدان المعركة بدون سلاح. يحمل (مقلاعاً) واختار خمسة حجارة رقيقة. وضرب الحجر الأول على جوليات فأسقطه عن ظهر فرسه، فهجم عليه داود وقطع رأسه وجلبه إلى خيمة شاؤول.

بهذا الشكل تضخم التوراة شخصية جوليات لكن داود يرديه قتيلا بحجر صغير رقيق. وحين تورد التوراة قصة شمشون اليهودي فإنها تركز على سر قوته التي ترمز إلى سر قوة اليهودي. فيرد أنه عندما أغضب شمشون الفلسطينيين على اليهود تصدى وحده لهم (ولما جاء إلى لحيٌ صاح الفلسطينيون للقائه. ووجد لحي حمار طريا فمدّ يده وأخذه وضرب به ألف رجل)[١٦] ولحي الحمار هو فكه.

وقد ورد في التوراة أن أحد اليهود قد قتل ٦٠٠ فلسطيني (بمنساسه) كما ويرد كثير من الإشارات إلى مثل هذا التضخيم.

وفي جميع الأحوال فإن رمزية التضخيم في الميثولوجيا التوراتية وضعت من قبل الكهنة لتؤدي أغراضها الدينية والسياسية التي تخدم توجه اليهود في احتلالهم للأرض والاعتداء المستمر.

○ المراجع:

١ ـ أحمد أبو زيد، الأسطورة والرمز والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر الكويتية، ص ١١.
٢ ـ أحمد أبو زيد، الأسطورة والرمز والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر الكويتية، ص ١١.
٣ ـ أحمد أبو زيد، الأسطورة والرمز والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر الكويتية، ص ١٣.
٤ ـ أحمد أبو زيد، الأسطورة والرمز والبناء الاجتماعي، مجلة عالم الفكر، الكويتية، ص ١٩.
٥ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٥، مرجع سبق ذكره.
٦ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ٤٨، مرجع سبق ذكره.
٧ ـ مجلة السنابل: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ فرع سوريا، العدد السابع، ص ٤١.
٨ ـ صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٨٣، مرجع سبق ذكره.
٩ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ٨١، مرجع سبق ذكره.
١٠ ـ صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٨٦، مرجع سبق ذكره.
١١ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ١٠١، مرجع سبق ذكره.
١٢ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ١٠٩، مرجع سبق ذكره.
١٣ ـ صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ص ١٨٨، مرجع سبق ذكره.
١٤ ـ اللالىء. نصوص من الكنعانية، ص ٣٢، مرجع سبق ذكره.
١٥ ـ الكتاب المقدس، صموئيل الأول، الإصحاح ١٧.
١٦ ـ الكتاب المقدس، سفر القضاة، الإصحاح ١٥ـ١٦.

الخاتمة

من المذهل حقاً أن يظل الاوروبيون يعتقدون بأن التوراة هو أصل التراث السامي، ومن المستغرب جداً أن يظل المستشرقون يخدعون العالم العربي بمقولاتهم المسمومة حول أحقية اليهود في امتلاك أرض التوراة كما يزعمون.

ومن المثير أيضاً أن يقف بعض الباحثين العرب موقف المتغابي أو الغبي وهم يتناولون تراث العرب وتاريخهم معتمدين على أراء المستشرقين والملفقين من أبناء الغرب.

لقد حان الوقت كي نتعلم كيف نعيد كتابة التاريخ ونبين حقائقه الموافقة للمنطق والعقل، وحان الوقت حتى يدرك هؤلاء المستوطنون المستعمرون أن لفلسطين شعب وللأرض أهلها المتجذرون في التاريخ منذ أقدم العصور.

جاء الوقت الذي يجب أن يدرك فيه هؤلاء الصهاينة أن المنطقة تلفظهم لانهم غرباء عنها. لقد انتشر هؤلاء الذين يزعمون أن لهم حق في العيش في أرض فلسطين، وما اليهود الصهاينة الذين يستعمرون فلسطين سوى من تلك الأصول الخزرية البلقانية الذين أجبرهم ملك الخزر على تبني الدين اليهودي بالاجبار. إن جابوتنسكي وبيغن وكبار محركي الاجرام في السلطة الصهيونية هم من هؤلاء اليهود الخزر الذين ما عرفوا أي صلة بالعرق السامي أو العروق التي عاشت في المنطقة.

وإذا كان لبعض اليهود حق في العيش في الأرض العربية أو فلسطين فلأنما هم يهود عرب يعيشون كأي مواطن آخر ضمن دول عربية يحكمها

شعوبها ولهم حقوق وعليهم واجبات مثلهم مثل بقية المواطنين العرب الذين يعيشون في المنطقة العربية.

ولم يعرف التاريخ أن فئات متباينة بالعرق والثقافة واللغة وغير ذلك يمكن لها أن تقيم دولة بسبب تبني هذه الفئات دينا معينا، وما كان الدين ليشكل قومية لها مقومات الوجود إلا إذا قامت على عنصر القوة والبطش والفتك وطرد الشعوب من أراضيها.

اين نظرية العرق اليهودي الواحد وهناك في دولة الكيان الصهيوني الامريكي والبولوني والحبشي والايراني والعراقي والسوري وكل منهم ذو لون مخالف للون الآخر وكل تفكير مخالف للتفكير الآخر. ومع ذلك تدعي الصهيونية أن من يتبنى اليهودية هم ابن اسرائيل. ورغم ذلك كله فإن صور الاضطهاد العنصري تتجلى في التفريق بين يهود شرقيين (سفارديم) ويهود غربيين (اشكنازيم). وهنا علينا أن نُعلم أن اليهود الغربيين أو الاشكنازيم هم نتاج الاستعمار الانجليزي والامريكي وهم حماة المصالح الاستعمارية في المنطقة.

ولذلك فإن التوراة الذي يتبنونه اليوم يتناسب مع طبعهم فهو من ناحية كتاب مسروق في أساطيره وديانته. وكتاب فيه من الجرائم ما يندى لها الجبين. ولعلنا في هذا الكتاب أسهمنا إلى حد ما في توضيح بعض الامور التي كانت غائبة عن أنظار الكثيرين. ونرجوا الله أن نكون قد ساهمنا في إحقاق الحق ودفع الباطل والله الموفق.

● حسن الباش

○ المراجع :

١ - القرآن الكريم.

٢ - التوراة، الكتاب المقدس أو العهد القديم، دار الكتاب المقدس، دمشق ١٩٨٠.

٣ - د. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الثانية، العربي للإعلان، العراق - بغداد ١٩٧٢.

٤ - إيلي منكو، اللاثيء. نصوص من الكنعانية، ترجمة: دبل ميدكو، ترجمها إلى العربية: مفيد عرنوق، منشورات مجلة فكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٠

٥ - أحمد أبو زيد، الأسطورة والرمز والبناء الاجتماعي، عالم الفكر الكويتية، العدد ٣، المجلد ١٦، سنة ١٩٨٦.

٦ - أحمد أبو زيد، الأسطورة والشعائر، عالم الفكر الكويتية، العدد ٤، مجلد ٩، سنة ١٩٧٩.

٧ - شوقي عبد الحكيم، الفولكلور والأساطير العربية، الطبعة العاشرة، دار ابن خلدون ١٩٨٢.

٨ - شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون ١٩٨٢.

٩ - قاموس الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، دمشق ١٩٨٠.

١٠ - صموئيل نوح كرايمر، أساطير العالم القديم، ترجمة: أحمد يوسف، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ٩٢٤.

١١ - صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، ترجمة: صبحي هويدي، سوريا، اللاذقية دار الحوار ١٩٨٤.

١٢ - عباس محمود العقاد، إبليس.

١٣ - عبد الحكيم ذا النون، تاريخ فلسطين القديم، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، سورية ١٩٨٤.

١٤ - د. عز الدين فوده، قضية فلسطين، سلسلة المكتبة الثقافية، عدد ١٨٠، ١٩٦٧.

١٥ - خلدون الشمعة، مدخل إلى مصطلح الأسطورة، مجلة المعرفة السورية، عدد ١٩٧، ١٩٧٨.

١٦ - جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، المجلد الثاني، نقلاً عن العرب واليهود في التاريخ.

١٧ - حسين عمر حمادة، آثار فلسطين، دار قتيبة، ١٩٨٣.

١٨ - ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، عالم المعرفة الكويتية، عدد ٩٦، سنة ١٩٨٦.

١٩ - مجلة السنابل، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، عدد ٧، سنة ١٩٨٥.

٢٠ - أندريه كريستون، (فولتير: حياته، آثاره، فلسفته)، ترجمة د. صباح محي الدين، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

المحتــوى